نجيب المانع

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2283) السنة الثامنة

الخميس (20) تشرين الاول 2011

10
من المؤثرات الثقافية في نجيب المانع

ولد نجيب سنة 1927 ودرس المرحلة الاولى من دراسته (الابتدائية) في الزبير حيث قضى طفولته في البلدة التي كانت تعتني بالدعوة السلفية الاسلامية الى جانب اهتمامها بادبيات اللغة العربية والتراث وكانت (خلفا ثقافيا) للبصرة القديمة التي كان موقعها الى جانب الزبير في الصحراء، بعيدة عن مياه الانهار او البحار التي كان يخافها العرب ويخافون من وقوفها حاجزا بين الجزيرة العربية وبينهم منذ ايام الفتح الاولى وتحرير الامصار ايام الخليفة الامام عمر بن الخطاب، ولذلك فان موقع المربد (السوق الادبي الشهير من اسواق العرب في صدر الاسلام) يقع قرب بلدة الزبير ولا يفصله عن الجزيرة ونجد فاصل مائي حيث كان محلا مأمونا لعقد الصفقات التجارية وندوات الشعر والادب.

هكذا عرفت نجيب المانع

عبد اللطيف الشواف
قانوني ووزير راحل

ان للتاريخ الفكري للزبير – لاسيما بعد انتعاش الحركة الدينية فيها اثر في الهجرة اليها من نجد – وكان ذلك وراء اهتمام نجيب منذ صغره – بعلوم الجادة الاسلامية من فقهية وادبية ولغوية ووراء تضلعه بهذه العلوم التي تاسست للتضلع منها وبتقاليدها الاجتماعية جمعيات عديدة مثل (جمعية الاصلاح الاجتماعي) و(جمعية النجاة) وقد عملت هذه الجمعيات بما بذل من جهد في تاسيس مدارس ثقافية عديدة ومجلات ومنابر وعظ وارشاد بحيث ان الزبير على صغر رقعتها – كانت مهدا لبعض المصلحين في العالم الاسلامي في اواخر العهد العثماني كالشيخ حبيب والشيخ الشنقيطي والشيخ المجموعي كما قد زارها في اوائل هذا القرن المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب المنار في مصر.

لقد اكمل المرحوم نجيب دراسته الثانوية في ثانوية العشار بالبصرة في دورة كل من الاساتذة الشعراء بدر السياب (خالد عبد العزيز الشواف المحامي والموظف والاديب الراحل ومحمد علي اسماعيل وكان معهم صديق متأدب من الانكياء هو الاستاذ عبد الرزاق الربس وقد سمعت انه عاد الى السعودية في المنطقة الشرقية وقاد حركة عمالية في الشركة الامريكية (ارامكو) ولم اسمع به بعد ذلك.

لقد اتصل نجيب بالثقافة العربية في ايام الحرب العالمية الثانية اتصالا مباشرة عن طريق الصحف والكتب القديمة التي تركت بعد تواجد الجيوش الاوروبية – بمئات الالاف - في قاعدة الشعيبة القريبة من الزبير. والشعيبة موقع استراتيجي وعقدة مواصلات بين الطرق الموصلة ما بين بوادي نجد والكويت وجنوبي العراق وما وراءها من الامصار – بمواقع العراق الجنوبية وحوض شط العرب وعربستان في ايران وقد كان لها شأن كبير في الحرب العالمية الاولى حيث تجمع فيها الجيش العثماني التركي مع المجاهدين وعشائر العراق العربية والكردية تحت الراية العثمانية الاسلامية وابلى فيها آل سعدون وآل فتله والهماوند والشيخ محمود البرزنجي الحفيد وعلماء النجف الحبوبي والشبيبي بلاء حسنا انتهى بمقتل قائد الجيش العثماني (عسكري بك) وانهزام المسلمين وتم على اثر ذلك احتلال جنوبي العراق من قبل الانجليز. وقد بقيت قاعدة الشعيبة قرينة لقاعدة الحبانية قرب بغداد، وفايد في مصر، واصبحت في العراق العالمية الثانية مطارا وقاعدة إمداد لتأمين طرق المواصلات بين جيوش الحلفاء في الغرب وجيوشهم في الشرق الاقصى وروسيا السوفيتية، حيث دارت المعارك الرهيبة في الحرب العالمية الثانية في جنوبي روسيا وانتهت بسقوط النازية وهتلر واحتلال برلين.

ويروي المرحوم نجيب نفسه وقد سجل ذلك في بعض كتاباته انه تعلم الانجليزية – عن طريق قراءته الكتب القديمة التي كان يبتاعها في سوق الكتب في الزبير والتي كان يعرضها الضباط والجنود الانجليز بعد ان كانوا ينتهون من قراءتها في معسكراتهم في قاعدة الشعيبة، وقد كان في تلك الكتب كثير من كلاسيكيات الادب الانجليزي التي كان قد سمع بها نجيب في دراسته بثانوية البصرة كمسرحيات شكسبير وغيرها.

لقد التقيت بنجيب بعد عودته للبصرة – عندما تخرج محاميا وازمع العمل في محاكم البصرة بعد انهائه الدراسة في كلية الحقوق اثناء ما كان عميدها المرحوم الاستاذ السيد منير القاضي وكان تخرجه عام ١٩٤٧. وعند مجيئه الى البصرة وتوطد علاقاته بجماعة نادي المحامين آنذاك حيث تكامل العنصر الثالث من عناصر تكوينه النفسي والايديولوجي الثقافي، فالعنصر الاول هو ثقافته العربية وتولعه بعلوم القرآن وادبيات العرب والشعر العربي، والعنصر الثاني هو الثقافة الغربية متمثلة في اجادته اللغة الانجليزية والفرنسية واهتمامه بكلاسيكيات الغرب من شعر وموسيقى وغناء ورسم ونحت ورقص ومسرح، اما العنصر الثالث فيه فهو الايمان والعمل على تحقيق شعارات الحركة الوطنية في الحرية والمساواة والديمقراطية والتحرر من نفوذ الاستعمار والانتصار لقضايا الفقراء والعمال والنساء والجنود والفلاحين وهي الشعارات التي ارتفعت في ربوع الرافدين واحتضنتها جماهير الطبقة الوسطى العراقية منذ المشروطية العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ بل قبل ذلك منذ اتصال العراق بالسوق الاقتصادية العالمية في ايام مدحت باشا ١٨٦٩ والتي انفتحت وتجددت معالمها باستمرار النضال ضد سيطرة الاستعمار في ثورة العشرين وما اعقبها من الصراع الوطني – الديمقراطي طيلة تاريخ العراق بعد الحرب العالمية الاولى في مشارف ثورة تموز ١٩٥٨ وعندما صار نجيب ايديولوجيا – قريبا من الحزبين الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي واثر ذلك كثيرا في تكوينه وتوجهه السياسي والفكري.

> لقد اتصل نجيب بالثقافة العربية في ايام الحرب العالمية الثانية اتصالا مباشرة عن طريق الصحف والكتب القديمة التي تركت بعد تواجد الجيوش الاوروبية – بمئات الالاف - في قاعدة الشعيبة القريبة من الزبير. والشعيبة موقع استراتيجي وعقدة مواصلات بين الطرق الموصلة ما بين بوادي نجد والكويت وجنوبي العراق وما وراءها من الامصار – بمواقع العراق الجنوبية وحوض شط العرب وعربستان في ايران وقد كان لها شأن كبير في الحرب العالمية الاولى حيث تجمع فيها

لقد عمل نجيب اولا موظفا في شركة نفط خانقين – المتفرعة من شرطة نفط خانقين البريطانية والتي كانت تعمل في توزيع المنتجات النفطية التي تقوم بتصفيتها شركة نفط خانقين نفسها على المستهلكين من سكنة المدن في العراق ومن المزارعين اللذين يستعملون المنتجات النفطية في تشغيل مكائن ضخ مياه الانهار لاغراض الارواء حيث كانت شركة نفط الرافدين تشتغل بالتسويق والتوزيع بعد التصفية التي كانت تتولاها شركة نفط خانقين، وكان المرحوم عبد العزيز المانع (عم نجيب) احد موزعي المنتجات النفطية في المراكب النهرية على مزارعي جنوبي العراق وقد كانت اجادة نجيب الكلام والقراءة بالانجليزية هي السبب في سهولة حصوله على العمل في شركة نفط الرافدين حيث بقي فيها الى حين انتهاء عملها بعد ثورة تموز ١٩٥٨ وتصفيتها حيث انتقلت مهامها الى المؤسسة الوطنية للنفط (مديرية توزيع المنتجات النفطية) حيث تعين نجيب مديرا عاما لهذه المؤسسة الوطنية وجرى تعريق ادارات توزيع المنتجات النفطية، هذا الى ان عمل نجيب المانع في مديرية الاستيراد العامة بادارة المرحوم ناظم الزهاوي في العهد الملكي – كانت من اسباب ترشيحه في سنة ١٩٦٠ لمهام تجارية في الاقتصاد الحكومي شبيهة باعمال الاستيراد العامة من الناحية النظرية عندما كانت دائرة مديرية الاموال المستورة خلية نحل تعج بالتجار من المستوردين الباحثين وراء اجازات الاستيراد المحدودة الكمية والمركبة من جهة، وموظفيها من الشباب التقدميين من جهة اخرى واكثرهم جاء في السنوات ١٩٤٨ – ١٩٥٢ متعاونين مع الاستاذ ناظم الزهاوي يقومون بواجباتهم صباح ومساء بالهمة والنشاط والنزاهة والاخلاص مما عرفت به مديرية الاموال المستوردة العامة واصبحت من خصائصها وخصائص موظفيها في تلك الايام.

لقد كان نجيب موظفا في مديرية الاموال المستوردة مع كل من الاساتذة عامر عبد الله وجاسم الرجب وابراهيم العنيزي وعبد الواحد القيسي وعبد الرزاق القيسي وعبد الوهاب الحسك وفاضل الخطيب وعبد الرزاق الشيخ علي واكرم الوتري وحسين عبد العال وحسن عبد العال وفاضل مهدي واسماعيل الشيخ علي وعبد الله عباس وعبد الجبار وهبي وهادي علي وبدر السياب وعبد الحميد صالح واسعد الفريج واكرم توفيق وحسان جاسم شوقي وجميل اسود ولطفي الدليمي ونجيب المانع وطلعت الشيباني وشكري صالح زكي وزكي عبد الوهاب ويحيى الوادي وكاتب هذه السطور عبد اللطيف الشواف وغيرهم من شباب العراق وفنانيه ومثقفيه وشعرائه الوطنيين والتقدميين والقوميين باختلاف توجهاتهم وتجمعاتهم السياسية مما كان لنشاطهم الفكري والسياسي اثر في التطورات اللاحقة في العراق قبل بوعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨.

وقد استمر المرحوم نجيب مديرا لمصلحة توزيع المنتجات النفطية حوالي السنة

نقل بعدها الى وزارة الخارجية العراقية بعد ان التقى بوزيرها المرحوم الاستاذ هاشم جواد – الذي اعجب بمزايا نجيب وكفاءته الخلقية والثقافية واجادته الانجليزية والفرنسية وبقي يشغل احدى مديريات وزارة الخارجية واظنها (الدائرة القنصلية) مدة تناهز السنة ثم بعدها فصله المرحوم عبد الكريم قاسم اثناء سفر المرحوم هاشم جواد لحضور اجتماعات هيئة الامم المتحدة في صيف ١٩٦١ وكان عبد الكريم وكيلا لوزير الخارجية آنذاك وكان سبب الفصل فيما سمعناه في حينه ان نجيب كان قد كتب مقالا في جريدة الاهالي (جريدة الحزب الوطني الديمقراطي – وكان نجيب عضوا فيه) يصف فيه اعدام ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري (بانه اغتيال وليس عقابا عن جريمة لأن لم تكن هناك محاكمات قانونية) – مما اغاظ عبد الكريم فاصدر الامر بفصل نجيب من وزارة الخارجية وبقي نجيب عاطلا طيلة ايام عبد الكريم قاسم.

ولما ان حدثت احداث ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ وتأسست الشركة العربية لإعادة التأمين كشركة مشتركة بين الشركات العربية لاعادة التامين ومنها الشركة العراقية لإعادة التامين، وكان مديرها صديقنا هو الدكتور مصطفى رجب الذي عين نجيب في شركته ثم رشحه للعمل بالشركة العربية لاعادة التامين في مركزها ببيروت حيث سافر نجيب واقام هناك مع عائلته مختلطا بالاجواء الادبية والثقافية التي كانت تعجب بها بيروت في الستينات واول السبعينيات سواء الاجواء الثقافية الشرقية العربية حيث كانت تصدر هناك مجموعة مجلات كالاديب والاداب والعلوم وغيرها، كما كانت بيروت تعج بمظاهر الثقافة الغربية حيث ابتدأت المسارح تعرض المسرحيات الاوروبية واللبنانية والقطع الموسيقية والاغنيات الكلاسيكية وحيث كانت محلات بيع الاسطوانات تتنافس في عرض احدث تكنولوجيات التسجيلات الفاخرة وتكنولوجيا تسجيل الالات المتنوعة وقد زرته في بيروت فوجدته يسكن في شقة صغيرة (الحمراء) ذات غرف ثلاث مليئة بالاسطوانات الكلاسيك بما يفوق عددها على الالوف وبالكتب العربية والشرقية باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية مما ادى الى دخول نجيب في مشاكل مالية مع الدائنين بأثمان الاسطوانات وغيرهم من الكفاء والضامنين مما كانت سببا في انهاء علاقة نجيب بشركة التأمين العربية وقيام خصومة بينه وبين الشركة المذكورة ومديريها ادت الى عودته الى بغداد في السبعينيات والى قيام علاقات غير ودية مع كثير من الاوساط الثقافية والفكرية الادبية ادت الى التأثير على مكانته الادبية والفكرية في هذه الاوساط وغيرها من اوساط الثقافة العربية هناك بعد ان كانت اقامة نجيب في بيروت سببا في معرفته بالاوساط الثقافية العربية وسهلت عليه العمل في الترجمة عند عودته الى بغداد.

قام نجيب بترجمة كتب عديدة من كتب الادب والفكر الغربي وانتخب رئيسا لجمعية المترجمين عند تكوينها في بغداد حيث كلف رسميا ببعض الترجمات السياسية منها إحدى كتب مستشار الامن القومي الامريكي برجنسكي وغيرها من المؤلفات الادبية والفكرية الغربية ولكنه كان ملاحقا من الدائنين والكفلاء بما ترتب لهم بذمة المرحوم نجيب عما تجمع من هذه النفقات المتراكمة عن ثمن الكتب والاسطوانات التي تركها في بيروت لدى احد اصدقائه الذي خزنها في مخزن في محل منخفض من داره مما ادى الى انغمارها بمياه الامطار مما اعطب الكثير من الكتب والاسطوانات ادى الى اتلافها هذا علاوة على ما انفق على ادباء بيروت في نفقات الولائم التي اقامها احتفاء بهم وباصدقائه من بغداد عند زيارتهم ديوان اعادة التامين (العربية) وقد ادت المطالبات بهذه الديون والقلق الذي ترتب على نجيب نتيجة عدم تمكنه من السداد واعادة الجدولة – الى اضطراره الى ترك بغداد والهجرة مع ابنه البكر لبيد – الى خارج العراق حيث انتهى به المطاف بعد السعودية في المنطقة الشرقية ومن ثم الى جدة ومنها الى لندن وحيث كانت اخته السيدة سميرة المانع تقيم وتعمل مع زوجها الاستاذ صلاح نيازي حيث يصدر مع زوجته السيدة سميرة مجلة (الاغتراب الادبي) من سكنهما في (كنكستن) وتمتاز (مجلة الاغتراب الادبي) بالاصالة والعمق، وتنشر نتاج الادباء العرب من مغتربي الوطن العربي في اوروبا وبلاد الغرب وان كانت من الناحية التجارية – تلاقي مشاكل مالية حقيقية في تغطية نفقات الطبع والتحرير والتوزيع.

لقد عمل نجيب في لندن محررا في جريدة الشرق الأوسط الصادرة بالعربية فيها واشترى في البدء داراً، وكانت اقساط الدار ونفقات (لندن) سبباً آخر في دخول نجيب في أزمة مالية اخرى حملته على البيع وترك الدار التي اشتراها واستئجار دار أخرى مؤقتة وقريبة من مركز لندن ثم بحثه اللحوح والمتعب عن عمل يدر عليه مردودا يسد بدل الايجار ومصاريف البيت مما ادى الى وفاته اثناء ذلك متأثرا – كما اعتقد – صحبا وعصبيا ونفسيا نتيجة حاجته الماسة الى الايراد وما كانت تشكله الديون المستحقة عليه من الضغوط في الغربة اذ ادت حاجته الماسة الى المورد المالي الذي يغطي احتياجاته التي كان يعجز عن معالجتها وتدبرها الى وفاته المفاجئة علما بانه قد فارق الحياة وهو جالس على كرسيه منتظرا خبرا مطمئنا عن طريق الفاكس عن عمل جديد في الترجمة يضمن له موردا مقبولا بعد ان اتفق مع جريدة الشرق الاوسط بان يعمل – غير متفرغ – وبالقطعة في الجريدة المذكورة لكي يستطيع ان يوفر لنفسه ولحسابه موارد اضافية يعالج بها التزاماته.

وقد سمعت منه في اواخر ايامه ثناء وامتنانا للاستاذ كنعان مكية (الكاتب العراقي المعروف) لأنه قد قدم نجيباً الى دار نشر بريطانية اتفق معها نجيب على اعداد وطبع ونشر قصة انجليزية يقوم نجيب بكتابتها للقراء البريطانيين وكان نجيب يأمل من وراء ذلك عائدا ماليا بالمستوى الغربي دائب الشكر في احاديثه الاخيرة من اصناف السخرية الممتعة التي تجر القارئ اولا على الابتسام، لكنه ما ان يتوغل ابعد في قراءته حتى تتحول تلك الابتسامة الى ضحة مجلجلة، ولن يتوقف هذا الاستدراج عند هذه المحطة بل سيقوده نجيب المانع بسهولة الى المراة التي يرى فيها نفسه وواقعه ليكتشف هوله.

بعد التعريف القاموسي للمفردة اللغوية يمضي المانع مفصلا انواع النفاجة "النفاخ الاجتماعي" هو من يخبرك على سبيل المثال، عند انتهاء مهرجان الخيول الذكية في ندسور وعودتي الى لندن ليلة الباخرة توقفت السيارة نزل السائق ولما رأيته اطال تفحص الخلل نزلت انا ايضا واذا بي ارى خلفي تشارلز واقفا فيسأله مستمعه تشارلز من؟ فيجيب النفاج الذي يحب ان يذكر المشاهير باسمائهم الاولى: انه الامير تشارلز ولي العهد قال لي: ماذا حدث لسيارتك ياجيمي؟ قلت لا ادري، هذه الرولز اللعينة (و النفاج لايقول الرولز رايس بل الرولز فقط) اخذت تعذبني مؤخرا اشار علي السائق ان نستقل البنتلي وتترك الرولز في المرأب، ولكنني احببا يا تشارلز لما تحمله عندي من ذكريات..".

واذ يعدد نجيب المانع انواعا كثيرة من النفاجات يتوقف عند النوع الذي يخصه هو بالذات "هناك نفاجة كراهية العمل ليس هناك من عمل يليق بالنفاج فهو يخبرك بمأساة حياته اذ يستيقظ صباحا ويذهب الى الدائرة او محل الشغل حيث الرئيس مزعج والزملاء سخفا، وهنا لابد لي من اعتراف اخر وهو انني قلما احببت العمل الذي كنت اعتاش منه، اذ اوحت لي نفاجتي في كثير من الاحيان باننى فوق مستوى العمل الروتيني الذي لا يتلاءم وقدراتي الابداعية وها قد مرت السنون ولم يتضح ان قدراتي الابداعية ذات شأن كبير في حياتي انا فضلا عن حياة الاخرين لم تكن سوى تلمسات اعمى في طرق المدن التي تزار لاول مرة، وكنت ، كما قلت مرة مستهلكا للعبقريات، اما انا نفسي فكنت مصابا بالوباء القاتل الزاحف الذي يهدم كل شيء ويشل كل انسان في صحارانا البرية وباء الاعتيادية Mediocrity الذي اصابنا، ولم يكد يفلت منه احد واذا كانت الطواعين تاتي وتميت ثم تزول فان طاعون الاعتيادية مثيم خالد لا يتحرك ولا يزول من ربوعنا.

خلف نجيب المانع وراءه ما يقرب من عشرين كتابا مترجما لا وجود لها في سوق الكتب حاليا من كتبه المترجمة التي اتذكر انني اقتنيتها في بغداد بمنتصف السبعينيات دراسة رائعة عن بيتهوفن وكتاب "بناة العالم" ورواية فيتزجرالد سكوت الشهيرة "غاتسبي العظيم" التي اعادت دار الهلال المصرية اصدارها بطبعة شعبية، وقد لا ابالغ اذا قلت ان النسخة العربية المترجمة تنافس ان لم تكن اجمل من النسخة الاصلية المكتوبة بالانكليزية .

مع ذلك لم يترك نجيب المانع اي كتاب مطبوع له سوى رواية "تماس المدن" الصادرة عن وزارة الثقافة العراقية عام ١٩٧٩، وفي عام ١٩٩٧ اصدرت دار "الانتشار العربي" اللبنانية مقالاته التي نشرها خلال السنوات الاخيرة من حياته في جريدة "الشرق الاوسط" تحت عنوان "ذكريات عمر اكلته الحروف" وكانت على نفقة صديقه الاستاذ حمدي نجيب.

اتوقف عند مفارق قمئيرة للانتباه في الوقت الذي اصبحنا نعاني من طوفان الكتب التي لا يكف اصحابها عن ضخها كل سنة الى المكتبات حتى قبل التعرف الى ردود فعل القراء لما سبقها، نجد بالمقابل اختفاء هذا الكنز الثقاف الذي خلفه وراءه نجيب المانع لنا.. ولعله مع ذلك لن يشعر باي اسف، فهي من وجهة نظره محكومة "بالاعتيادية" على الرغم من استنادها الى مئات الكتب والمعاجم والاسطوانات والاف الساعات من الاستغراق في الكتابة والتامل وفك مغاليق اللغات الاجنبية وقبل كل شيء الى موهبة نثرية نادرة، لعل ذلك هو القانون الذي يحكم الثقافة العراقية الحقيقية قانون الفناء، منذ انذار مكتبة اشور بانيبال مرورا بهولاكو وجراده الصحراوي وانتهاء باحفاده المعاصرين.

نجيب المانع: آخر الموسوعيين

لؤي عبد الاله
قاص عراقي مقيم في لندن

تمر في هذه السنة الذكرى العاشرة لرحيل الكاتب والمترجم العراقي نجيب المانع، ومثلما هي الحال مع كثير من الفنانين الكبار توفي المانع وهو محاصر بالعزلة والندم والفاقة، وحينما اخترق الاقارب بيته الواقع في حي لندني فقير، وجدوه كعادته جالسا على كرسيه الهزاز وبين يديه كتاب سميك عن الشاعر الالماني ريلكه.

وعلى الرغم من عبود عقد على فقداننا لرائد مهم من رواد الحداثة في تاريخ الثقافة العراقية، مثل نجيب المانع، لم تبادر اي مؤسسة ثقافية او سياسية او اجتماعية معنية بالهم العراقي الى جمع كتاباته المبعثرة في العديد من المجلات الثقافية مثل مجلة "الكلمة" العراقية، و"مواقف اللبنانية" و"الاغتراب الادبي" التي ما زالت تصدر في لندن ناهيك عن مقالات كثيرة اخرى سبق للاستاذ المانع ان نشرها وبشكل منتظم في فترة الخمسينيات في مطبوعات مثل جريدة "البلاد" ومجلة "الثقافة" العراقيتين في كثير من هذه المقالات مواد فكرية دسمة فرشها لنا نجيب المانع على سفرته الواسعة باسلوب تتعشق فيه روح الدعابة بالغضب، التامل العميق بالخطابية المبهرجة، البلاغة المكثفة باللغة العادية. في مقالاته الكثيرة ينغمر نجيب المانع بحقول ثقافية وفنية عديدة، ففي نص اوحد تتمازج الفلسفة بالموسيقى، الحدوتة المفاجئة بالذكريات، الاراء الاستفزازية بالنقد الحاد للذات، وكان مقالاته اعاصير عاطفية لا تسعى الى الثبات في ذهن القارئ بل لتحفيزه على إثارة اسئلته، ولزعزعة قناعاته السابقة، في مقالته "النفاجة" التي كتبها عام ١٩٨٦ بلندن يرصد الفقيد المانع مفردة snoblism الانكليزية التي تقابلها بالعربية كلمة "نفاجة" لكنه يتجاوز المعنى السائد بالانكليزية ليوسعها عربيا شاملا الكثير من الظواهر السلبية في حياتنا، كل ذلك باسلوب ساخر وحميمي قلما نجده في الساحة الثقافية العربية لا تعني كلمة السخرية لدى نجيب المانع الانتقاص من الاخرين بل هو صنف من اصناف الدعابة شائع في الغرب تحت اسم "المحاكاة الساخرة" Parody اضافة الى استخدام الاسلوب الساتيري Satire في السخرية والهادف الى الاصلاح عبر المبالغة يتناول الظاهرة موضوع النقد ويذهب المانع في العديد من كتاباته الى تعرية سلبياته امام القاري جنبا الى جنب مع ما يراه متميزا في ذاته.

يقول هيرمان هيسه في روايته نقد البوادي، روح الدعابة الحقة تبدا حينما يكف الفرد عن اخذ نفسه ماخذ الجد" ، ولعلنا نجد في مقالة "النفاجة" التي نشرها في مجلة "الاغتراب الادبي" هذا الكرنفال العاصف من اصناف السخرية الممتعة التي تجر القارئ اولا على الابتسام، لكنه ما ان يتوغل ابعد في قراءته حتى تتحول تلك الابتسامة الى ضحة مجلجلة، ولن يتوقف هذا الاستدراج عند هذه المحطة بل سيقوده نجيب المانع بسهولة الى المراة التي يرى فيها نفسه وواقعه ليكتشف هوله.

بعد التعريف القاموسي للمفردة اللغوية يمضي المانع مفصلا انواع النفاجة "النفاخ الاجتماعي" هو من يخبرك على سبيل المثال، عند انتهاء مهرجان الخيول الذكية في ندسور وعودتي الى لندن ليلة الباخرة توقفت السيارة نزل السائق ولما رأيته اطال تفحص الخلل نزلت انا ايضا واذا بي ارى خلفي تشارلز

عن كتاب عبد الكريم قاسم وشخصيات اخرى . لندن/ دار الحكمة

نجيب المانع

ذلك الراهب في محراب الأدب والفن

وحيد الدين بهاء الدين

في مدينة كركوك، وفي شتاء قارس مساؤه، ضمنا القدر في معهد ثقافي على غير ارادة منّا، انتحى بي جانباً، استل من جيبه ورقة مخفية ومطوية، سرعان ما اطلقها شارعاً في قراءة ما فيها على مسامعي بصوته الخفيض، فاذا هي قصيدة سياسية للشاعر التركي الشهير، ناظم حكمت:

– وهل أنت متضلّع من لغة (الناظم)؟

– ترجمتها من اللغة الانكليزية..

وفي ليلة الثلاثاء، العاشر من شهر كانون الأول عام(١٩٥٧)، دعاني واثنين من الاصدقاء المعنيين بقضايا الادب والفكر، الى سهرة بدارته، للاستماع الى بعض من سمفونيات بتهوفن ورمسكي كورساكوف وهاندل، الى جانب من اسطوانات باصوات عمالقة الثقافة العالمية من امثال ايرنست همنجواي والبيركامو، والى شيء من مسرحيات وليم شكسبير وجورج برنارد شو..

هكذا بدأنا وفي ايام محددة كنا نخرج معاً بسيارته لالشيء الا لنحضر ندوة ادبية هنا، او حفلة (كوكتيل) هناك، او جلسة اخوانية هنالك يتيحها لنا ولغيرنا الاخرون.

كان هذا الانسان الهادئ طبعاً.. الباذخ ثقافة.. الراهب سلوكا، هو نجيب عبد الرحمن المانع، مدير شركة نفط خانقين المحدودة يومئذ، وقد جرى لقاؤنا وتعارفنا قبل ذلك بقصير وقت وفي مناسبة ادبية او اجتماعية.

كان نجيب المانع دائب المطالعة في مختلف الفنون والالوان، لأعلام من الشرق والغرب، باللغتين العربية والانكليزية، حريصاً على احتكاكه بمن كان يخطو على الدرب الجديد وبمن هو على شاكلته كبدر شاكر السياب وبلند الحيدري والبياتي وصلاح نيازي، وكان لهذا كله اثره الفاعل في مسيرته الشخصية، بوصفه انساناً حسّاساً، وفي انطلاقه الفني موهوباً تستهويه الاصالة والطرافة معاً في مضمار الثقافة والشعر ويستميله الوجود والحرية معاً، في عالم متغير مشتجر، وتحدوه المسؤولية والالتزام معاً، على التصرف والتحكم ويهزه الظلم والظلام معاً، في معترك الحياة وتلافيف الزمن.

من هنا كان اهتمامه بالأدب العربي بوجه عام، وليس باللغة العربية بالذات، فاتراً على العكس من اقباله على موارد الأدب الغربي وفكره وفنّه.

ومن هنا ايضاً كان كثيراً ما ينحاز الى جيله الذي وصف شعراءه وأدباءه بالمبدعين والخلاّقين، وان اتوا حيناً، من الغثيان ما أتوا، كذلك كان ينحي باللائمة وينزل بسوطه على الاتباعيين و الرومانسيين من قادة الأدب العراقي والعربي كالرصافي والزهاوي والشبيبي وحافظ جميل واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وغيرهم ممن اسهموا في حياتهم بالنضال الوطني والقومي، وممن ساد انتاجهم طابع الجدة والشمولية والحيوية..

على ان هذه النظرة الاحادية الحادة من نجيب المانع، جعلته يتقزز من ما لايخدم في قناعته، وجودنا الثقافي وموقفنا الحضاري، ثم لايعطينا القدرة على التجرد والابداع في بعض ما نتناوله من انماط الأدب والفن ونزاوله من طقوس وعمليات عبر حركة الزمن سواء ان كان في ذلك ابطاء او اسراع، ما جعلته يتحاشى من يقف على هذا الخط أو على هامشه الذي لايطمئن اليه ولا يعتد به منذ ادرك وعيه، الا اذا كان مضطراً والمضطر غير المختار، والا اذا كان محكوماً والمحكوم غير المطلق..

في ضوء هذا وبوحي منه اخذ نجيب المانع ينشر في صحفٍ ومجلات عراقية وعربية ابحاثاً ومقالات ويزاول القصة والنقد ما وسعه ذلك، في حين بدأ يترجم من اللغة الانكليزية الى لغتنا الجميلة على قدر أكبر وأرحب.

اقتصرت ترجماته على الشخصيات العالمية في مجال الرواية والفن، والرواية تلك التي كان لها أثرها في الاحداث التي دارت، وفي الاجيال التي تلت ككتاب، (غاتسبي العظيم) لسكوت فتزجيرالد وكتاب (ديستوفسكي لرينيه ويليك وكتاب (بتهوفن) لسوليفان وكتاب (مارسيل بروست والتخلص من الزمان) لجرمين بريه وكتاب (تولستوي) لرالف ماتلو..

ففي مقدمته لكتاب (بتهوفن).. نصّ نجيب المانع على القول (ترجمتي لهذا الكتاب ابنة شرعية للحب، حبّ مزدوج، وقد يتورد الحب والجذوة الداخلية واحدة.. انه حب مزدوج فهناك بتهوفن موسيقي الاعماق وهنالك كتاب سوليفان احد كاشفي الاعماق..)

واضح ان ما يرمي اليه نجيب المانع من ترجماته هذه، ذات الافق الانساني والرؤية العميقة والاسلوب النابض هو تقريب سمات العبقرية ومعاني البطولة ومغازي الاسطورة، وملابسات الممكن وغير الممكن الينا لا لمجرد اطلاعنا عليها وامتناعنا بها وانما لتكون وينبغي ان تكون لنا، مهماز اً على مضاهاتهم ومجاراتهم بالمثل ان لم تكن احسن، ثم المشاركة، –هنا السرّ– معهم في مسيرة الحضارة الانسانية، كالذي كان حالنا من قبل ومن بعد.. قال نجيب المانع في بحثه.. (توثيق الارتباط بالتراث)..

المقدّم الى مؤتمر الادباء العرب السابع عام(١٩٦٩) على ان كرامتنا لا تبيح لنا أن نأخذ على الدوام من الحضارة الانسانية ولا نعطيها ونحن اذا حصرنا انجازنا الحضاري فيما يتعلق بالأدب في الحدود التي لايستطاع نقل مدركاتها والتي تفقد جمالها في الترجمة فان علينا ونحن نحتضن لغتنا الرائعة ونعالج بواسطتها احساسنا بالوجود ان ينير لها سبيل الانتقال من امكانات التعبير الموضعية الى شمولية الوعي الانساني وذلك لا يتيسر لنا الا اذا احترمنا كل ما هو حي وملهم بالحياة في التراث الانساني واستوعبناه (كملك خاص بنا مباح لنا كل الاباحة)ص٦..

وفي ميدان الابداع نشر نجيب المانع رواية عنوانها (تماس المدينة) نشرتها له وزارة الثقافة والاعلام..هذه الرواية تداخل احداثها وزواياها.. بناؤها معماريّ لكن بلا تزيين لفظي وداخلي وانما لايصح تلخيصها اوتحليلها المافض في عجالة كهذه، حذر القصور او التقصير عن ايفاء حقها.. بينما نجيب المانع من جانب ثان ضرب سهماً وافراً في كتابة القصة القصيرة المتأثرة بالتيار الحديث الوافد من ديار الغرب بين نهايات الخمسينيات وبدايات الستينيات حسبناً ذكراً لبعضها، (الممثل يضحك الجمهور) مجلة (الرسالة) اللبنانية١٩٥٧/٧.. (الأعمى والحذاء) مجلة الفنون) العراقية١٩٥٨/١.. (فولكنر على نهر الغرّاف) مجلة (المثقف) العراقية١٩٥٨/٢٤.. والدرس الاول مجلة (الأديب) العراقية١٩٦١/١.. (شاعر يعترف) مجلة (المثقف) العراقية.. الخ.

لم يألُ نجيب المانع جهداً في تدبيج بعض الدراسات الادبية الموضوعية الشاملة في صحافة لبنان والعراق عبر الخمسينيات كمبحثه المفصّل المعمّق عن الروائي العالمي ايرنست همنجواي في مجلة (الاداب) اللبنانية١٩٥٨/٣، ذلك المبحث الذي ينهض وحده كتاباً جديراً بأخذ مكانه في المكتبة المعاصرة والذي توصّل فيه نجيب المانع –على ما يبدو– الى انه اذا كان (الزمن يعد بعداً رابعاً في الادب والفن فان نصوصاً ابداعية مستغرقة ذات أعماق وآفاق لابدّ ان يتوفر فيها بعد خامس وسادس وهكذا.. ثم كان من حسن حظ نجيب المانع ان هيأته مناسبات وامكانات لأن يزاول في مطلع الستينيات الأدب السياسي الى جانب الالوان الأدبية الاخرى، اذ نشر مقالات وتعقيبات عن الديمقراطية والحرية وما يتصل بهما وما يتفرع عنهما من ما اثار ردود افعال هنا وهناك وحرّكت اقلاماً للتصدي له، وما برحت اتذكر كيف وقف شاكر علي التكريتي ذات مرة وهو يناقشه بفكر علمي واسلوب صحفي حاد..

نجيب المانع ميلاده عام(١٩٢٦).. متخرج في كلية الحقوق.. انتمى الى سلك الوظيفة متدرّجا بعد عمله مديراً لشركة نفط خانقين بكركوك في اواخر الخمسينيات كما المعت، عين مديراً عاماً للمنتجات النفطية على اثر اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز عام(١٩٥٨) ثم قضت الظروف ان يصار الى شركة اعادة التأمين حتى تقاعد.. وفي منتصف السبعينيات استخدم رئيساً لقسم الترجمة بوزارة الثقافة والاعلام لتضلعه من اللغتين: العربية والانكليزية ولكنه في النهاية تخلى عن كل شيء.. لشعوره بوطأه المرض الذي أزمن فيه كما يظهر، فاضطر الى الرحيل الى لندن، حيث اخته الكاتبة القاصة سميرة المانع، المقيمة بها منذ عقود ومؤلفة رواية (السابقون واللاحقون) ومجموعة (الفناء) القصصية وغيرهما.

هناك أعاد نجيب المانع فحصه الطبيّ متابعاً علاجه، في الوقت الذي جعل يغالب فيه متطلبات العيش بالسعي والكدح، فاذا المرض العضال على الايام يعصره ويهصره حتى اودعه القرار المكين عام(١٩٨٢) هادئاً عن ستة وخمسين عاماً..

عن جريدة الجمهورية 2002

واضح ان ما يرمي اليه نجيب المانع من ترجماته هذه، ذات الافق الانساني والرؤية العميقة والاسلوب النابض هو تقريب سمات العبقرية ومعاني البطولة ومغازي الاسطورة، وملابسات الممكن وغير الممكن الينا لا لمجرد اطلاعنا عليها وامتناعنا بها وانما لتكون وينبغي ان تكون لنا، مهماز اً على مضاهاتهم ومجاراتهم بالمثل ان لم تكن احسن، ثم المشاركة،

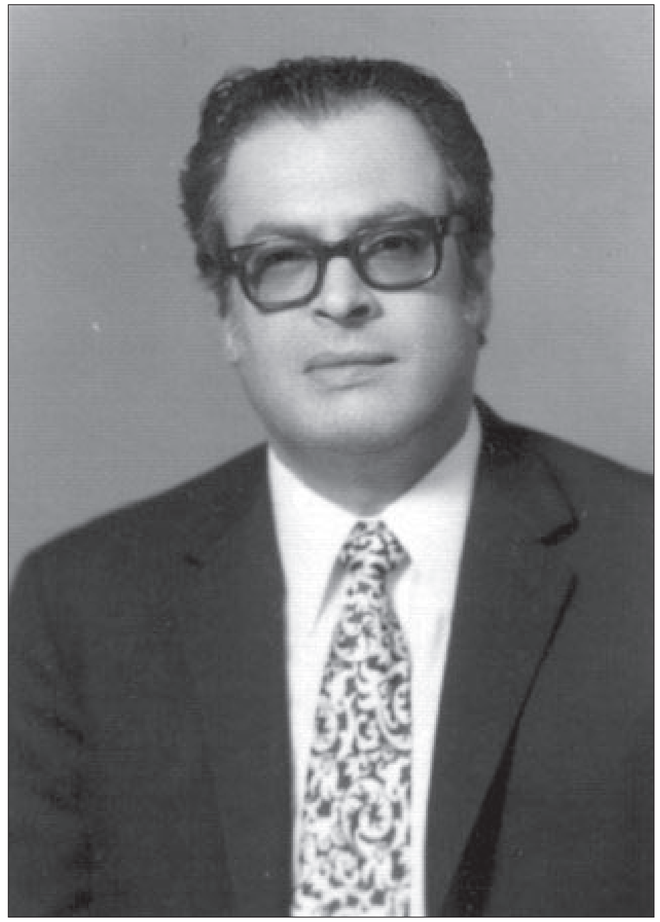

في ذكرى نجيب المانع

صلاح نيازي

كنت أتوقع، معجزة ما حتى حينما كان جثمان نجيب المانع في ثلاّجة الموتى في انتظار مراسيم الدفن. وكلما ازداد التأخير في الاجراءات الروتينية، ازددت توقعا أنه سينهض، أو ربما يعود الزمن إلى اسبوعين أو أسبوع إلى الوراء، فننسى كل شيء، وأمامنا نجيب بكامل طوفانه الفكري، وأعاصيره العاطفية.

حتى ونحن في طريقنا إلى المقبرة كنت أتوقع أنه سيطلع علينا من التابوت بإحدى مفاجآته، فيحتضننا واحداً واحداً ويعتذر عمّا سبب لنا من متاعب.

نظرتُ إلى حفرة القبر المستطيلة فما عدت أتبين هل في التراب حنان أم قسوة؟ أنزل التابوت بأيات اثيرية من القرآن الكريم، وحينما ارتطمت أوّل حفنة من التراب المتطيّن على خشب التابوت، رنّ صوتها برنين لا شبيه له. صوت لا ينتمي إلى الحياة أو الموت، لا إلى النور ولا إلى الظلام، لا إلى بداية الانسان ولا إلى نهايته. صوت ارتطام أول حفنة من التراب المتطين على خشب التابوت لا علاقة له بالصوت أو الصمت، لا علاقة له بالأذن البشرية أو القلب. صوت ارتطام أول حفنة من التراب المتطين على خشب التابوت، يُذهب كل صوت عداه.

فقط حينما انغلق التراب، تيقنت أن نجيب غاب إلى الأبد ، وانتهت مفاجآته. ما من باب أو حجاب أو ظلام أعتى، أو اشدّ ضراوة من التراب إذا انغلق على انسان.

كنت متيقنا بالهاجس ونحن في الطريق إلى بيته أنه مات هذه المرة، عرفت أنه مات من تصلّب ذراعيّ من الدوي المعتم الكامد في الصدر، من الدموع إلتي جعلت السياقة مخاطرة، من الصمت الشامل الذي كان أعلى من كل ضوضاء، وجعل حركة الاشياء في الشارع هلامية، وكأنها تندفع من مكان إلى مكان بلا هدف. كنت متيقنا بالهاجس أنه مات هذه المرّة . هل كنت متيقنا حقا ؟

نظرتُ إليه من الشباك. فاجأني بنومته على الكرسي. كان يضع ساقاً على ساق كعادته، رأسه مائل إلى اليسار، وعلى صدره كتاب. يده اليمنى على فخذه الأيمن ويده اليسرى مرفوعة إلى الأمام قليلاً، وكأنه يهم بتناول سيجارة. انسجام تام بين جسده والصمت يجعل من الموت اغفاءة، مجرد اغفاءة سعيدة. خرج الطبيب، قال إنه ميتٌ منذ أربع وعشرين ساعة.

ما من أحد يستطيع أن يوجز نجيب، أو أن يختصره بكلمات أو الوان أو بأي ايقاع. إلا أنه الوحيد الذي كان قادراً على اختصار نفسه. اغفاءة ممتلئة بالسكون. كتاب مقالات عن بروست على صدره، وفي التسجيل شريط لمختارات من شعر ريلكه بالانكليزية، وفي الجانب الآخر مقطوعات دينية لباخ، وعلى الارض كتب معلمّة قطع فيها بعض شوط.

هذا هو نجيب كما اختصر نفسه. أزمان في زمن. قارات في غرفة واحدة. أنهار في قدح، وجبال في تمثال.

آلاف الكتب. آلاف الاسطوانات. لم أرَ في حياتي غرفة مكتظة بانسجام ،اكتظاظ الأطفال في الاعياد كغرفة نجيب. لم أرَ بحياتي يتما ذاهلاً، كما رأيته في غرفته. مَنْ ذا سيقلّب تلك الكتب بحنان وحرقة ودقة مثله؟ كان يقرأ وكأنه مريض ينقّب بارتباك وحرص في كتاب طبي عن اسباب مرضه، وعن طرق المعالجة. كان يقرأ كمَنْ يقرأ مصيره في بوصلة. مَنْ ذا مثله يمتلك تلك الأذن التي تخزن آلاف الألحان؟ لم أرَ بحياتي يتما ذاهلاً، كما رايت في غرفة نجيب المانع. كلها يتامى مذهولة صامتة. الكتب والاسطوانات مذهولة واجفة انقطعت عن التنفس والنبض، وكأنها شُلت مرة واحدة ولا تعرف كيف تنقذ عاشقها من السكتة القلبية السريعة. شلت مرة واحدة ولا تدري كيف تمشي إليه وتقبله على وفائه الأبدي لها. حتى ساعته تعطلت على الساعة الثانية يوم ٣١ اكتوبر.

نجيب نخلة من مدينة البصرة جذورها منقوعة بالماء، ورأسها ملتهب بالشمس والثمر. عاطفته كذلك منقوعة بالماء، وعقله مشبوب.

متصلان ومنفصلان كجذور النخلة وعروقها. يقرأ شكسبير بإكبار وتدمع عيناه لسقط الزند للمعري، يتمعن بمقالات جون رسكن، ولا يتغذى إلاّ من الجاحظ. لا يهمه من كل الفلسفات إلا كرامة الفرد. لا تهمه هوية النص بقدر علاماته الابداعية الفارقة. وهو مثل الفنانين الاصلاء فوق الحزازات المذهبية والطائفية ، أو لا يُعرف بأي مذهب أو طائفة. لم اسمع منه قط كلمة واحدة متحيزة ضد الانسان كإنسان.

كانت صورة الأديب العراقي في الثلاثينيات والأربعينيات – كما خُلقتْ لنا – صورة كتبية، جادة عابسة بيديها مفاتيح النصح والحكمة والارشاد، لها دور التوجيه الأبوي الصارم. أما في الخمسينيات– جيل نجيب المانع – فقد انتشرت مقولة : ان الشاعر طفل كبير، فمهما عبث الطفل، أو كسر قانونا أو مزق دستورا، أو تجاوز حرمة وعرفاً فلا يحاسب محاسبة الكبار.

ظل نجيب المانع منذ عرفته عام ١٩٥٧ وحتى وفاته طفلا، ما فارقته الطفولة قط.

منذ ثلاثة أشهر، وأنت تكرر بابتسامة مطمئنة لم أرها على شفتيك من قبل، إنك ستموت. تبتسم والابتسامة تلك على شفتيك، وتقول بصوت خال من أي ارتعاش، بأنك لا تخاف الموت. اربكني اطمئنان ابتسامتك، ولم اصدقك. لماذا لم اصدقك؟

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2283)
السنة الثامنة
الخميس (20)
تشرين الاول 2011

شخوص على الحافة

نجيب المانع
ناقد مزج السرد بالرومانسية

توما شوماني
تورنتو .كندا

(نجيب المانع) ناقد مزج الواقعية بالرومانسية، ولد في الزبير في البصرة، في الزبير الرابضةعلى حافة الصحراء وعلى حافة فردوس النخيل وشط العرب. في (ذكريات عمر اكلته الحروف) يقول مؤلفها (نجيب) في بعض منها (هذه تجربات تتناول بالدرجة الاولى مغامرات الافكار ...بجزعها واطمئنانها... والمستقبل العربي «والمستقبل تاريخ ايضا») وفي الزبير يقول (نجيب) في (بلدة الزبير رايت الشعر ينبجس من الرمال الملتهبة) وفي هذا حق فالصحراء ارض النوق والبعران انجبت اكبر قافلة من شعراء الحب والتشبيب والهيام اولهم (عمر بن ابي ربيعة) الذي قال (كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند قالت بعد غد) و (مجنون ليلى) و (كثير عزة) و (جميل بثينة) وغيرهم. (نجيب المانع) ابن الزبير تزاملت معه في المرحلة الثانوية من العمر في

ثانوية البصرة الوحيدة في لواء البصرة، كان نجيب ابرزنا في صفي الرابع والخامس اذ كنا نعجب من قدرة (نجيب) في احراج مدرس الادب العربي محمد الصانع ومدرس التاريخ في اسئلته الابداعية. الواقع انني لا اتذكر من طلبة صفنا آنذاك غير (نجيب) وآخر رحل الى اميركا وبقيت شخصية (نجيب) عامرة في ذهني. وآخر مرة زرته في بغداد بعد تاميم النفط، اذ زرت احد اقاربي ثم عرجت على غرفة (نجيب) في البناية التي كانت قائمة على آخر شارع في ساحة التحرير في الباب الشرقي. كان ذلك الحديث الاخير الذي دار بيننا. (نجيب) كان انسكلوبيديا اذ اعجبت بحذقه في معرفته الكاملة في الآداب العالمية مع تعامله الكامل في تاريخ ونقد الموسيقى العالمية مع تعامله الحاذق بلغة سيبويه الغامضة. كان (نجيب) كاتبا ينظم شعرا و شاعر يكتب سردا، ويخلط السرد بالشعر. وفي قدرته على تعلم الفرنسية بنفسه وببعض الاستعانة بالالجئ التونسي (على الحمامي) اذ يقول (نجيب): (تعلمت منه نطق الحروف وشيئا من الجمل الاولية) ويذكر (نجيب) بان (الحمامي) تحطمت به الطائرة فمات. الواقع ان (على الحمامي) كان يدرسنا في المتوسطة في ثانوية البصرة (التاريخ الاوربي) وكان يسرد المواضيع سردا دون توقف ولي عنه ذكرى سارويها بعدئذ. في فهرس كتابه (ذكريات عمر اكلته الحروف) نجد الكثير من العناوين البراقة (الموجة الرومانطيقية – شعر الرصافي .. طنان بلا موسيقى – اللغة..الطلسم الغامض – الاديب سجين اللغة – مدينة الزبير ...وفيض الشعور – قصور طه حسين – لم ير معرضا ويخوض في الفن التشكيلي – رثاء الصوت البشري – جائزة الركاكة – لست عمليا .. وهذه سبب خيبتي) ومواضيع اخرى وهي مواضيع فيها الجرأة وفيها لمسات الرومانسية.

تحدث (نجيب المانع) عن بلدته الزبير فيما ذكرت من قبل (في بلدة الزبير رايت الشعر ينبجس من الرمال الملتهبة) ويذكر في كتابه ايضا (كنت اسكن الزبير وادرس في مدينة البصرة مجتازا في الذهاب في السيارات العتيقة المطقطقة اربعة عشر كيلومترا من الغبار المتصاعد في طريق الزبير) يقول (وكان عالم كتبنا يشبه فهو مكون من دواوين مصفرة الاوراق طبعت في مطابع قديمة). الزبير اليوم ليست زبير الامس الزبير. فهي الآن فارغة من الذين يتحدثون بلهجة (اش تبي) اي (اي شيء تبغي) فتسمع الآن (شتريد)، الزبيريون السعوديون او الكويتيون آثاروا الرجوع الى منابعهم الاصلية بعد حلول (عصر النفط) النابع من الصحراء القاحلة بدلا من قول نجيب (الشعر ينبجس من الرمال الملتهبة) والآن تقول المقولة (النفط ينبجس من الرمال الملتهبة). وسبب هجرتهم ايضا بداية عصر الانقلابات في العراق والذي ادى في النهاية الى موت العراق احتراقا.

في (ذكريات عمر اكلته الحروف) تحدث (نجيب) عن القدامى كـ (المتنبي) و (الجاحظ) وعن اجيال النصف الاخير من القرن الماضي كـ (طه حسين) و (الرصافي) و (ألسياب) كصديق و (ألموسيقى) واعلام الغرب كـ (ديوفيسكي) وعديدون. ذكر (نجيب) عن (بدر شاكرالسياب) انه عاصرة في الدراسة في بغداد فكان (السياب) يدرس في دار المعلمين العالية وكان (نجيب) يدرس في كلية الحقوق. الواقع ان الذي وقع انني عندما كنت في الصف الاول في ثانوية البصرة الواقعة على الطريق المؤدي الى (جيكور) قرية (السياب)، كان (السياب) في الصف الخامس وهو الصف الاخير وفي ظني ان نجيب كان يدرس في متوسطة البصرة وقتئذ، وعندما وصلت الصف الخامس كان معي (نجيب) في ثانوية البصرة، وفي تلك السنة حل السياب مدرسا بعد ان تخرج من دار المعلمين العالية. لا ادري لم هذا الاختلاف ؟ عسى ان اكون مخطئا. الغريب في ذهني ان (نجيب) ذكر انهما تزامنا في الدراسة في بغداد. يقول (نجيب) عن (ألسياب) هذا القول (اخذ في شعره الاول يكوم الآلام فوق الآلام على رأس «المومس العمياء» و «حفار القبور») ثم يقول (يكفي التعبير ...عن الم واحد...وان من القسوة الشعرية عند الفنان تحميل شخوصة الألم). يتحدث (نجيب) عن فشله في ممارسة المحاماة فيقول كان فشلي اسطوريا اعتبر نفسه واحدا من الذين فشلوا في ممارسة المحاماة ومنهم (اكوب هاروتيان) الذي يجل له الاعتبار اذ قال عنه (نجيب) كان (اكثرهم صفاء ذهن ومصارحة وقوة شخصية). يذكر (نجيب) رواية نادرة عن (ألسياب) وهي انه نهر متسولا فتأثر (هاروتيان) فوجه (للسياب) قوله (ان معاملتك القاسية للمتسول حجبت عني شعرك في وصف المآسي والالام البشرية؟) فغضب (ألسياب) على (هاروتيان) قائلا ما معناه انك ارمني لا تفهم الشعر العربي فكان صمت وما لبث (ألسياب) بعدها ان شعر بالخطأ فاعتذر. وتحت عنوان (اللغة...الطلسم الغامض) يحس بتقوقع اللغة العربية المقيدة بقيود سيبويه القديمة المعروفة بانها (نحو وصرف) لهذا يقول (نجيب)، (وجدت لغة بلند الحيدري والسياب والبياتي ونازك الملائكة في اعمالهم الاولى تبشر بلغة الشروق اللغوي الجديد) وفي موضوع (الاديب سجين اللغة... حيث يقول (الاديب سجين اللغة) ومع اللغة حاملا ثقل الماضي الثقيل).

(نجيب) يعترف ان العربية لاتروي غليله فيما يهيم في التعرف على الادب العالمي فنجح في تعليم نفسه بنفسه الفرنسية اضافة الى مايعرف من لغة شكسبير، الواقع ان (نجيب) يلوم الدكتور طه حسين عميد الادب العربي اذ لم يعرف العرب بالادب الفرنسي. اعترف (نجيب) باخطائه وسلبيات حياته. اما انا اعترف بأني لست قادرا على اعطاء كشفا كاملا عما ورد في (ذكريات عمر اكلته الحروف) ومن يود ان يعرف كل ما ورد فيه فعليه قرائة (ذكريات عمر اكلته الحروف).

يقول صلاح نيازي زوج سميرة المانع شقيقة نجيب وكانت مدرسة في ثانوية الكرادة الشرقية في بغداد وكانت زوجتي الراحلة (جوليت) زميلتها في التدريس. يقول صلاح (نجيب نخلة من مدينة البصرة جذورها منقوعة بالماء، ورأسها ملتهب بالشمس والثمر. عاطفته كذلك منقوعة بالماء، وعقله مشوب. متصلان ومنفصلان كجذور النخلة وعروقها. يقرأ شكسبير بإكبار وتدمع عيناه لسقط الزند للمعري، يتمعن بمقالات جون رسكن، ولا يتغذى إلاّ من الجاحظ. لا يهمه من كل الفلسفات إلا كرامة الفرد. لا تهمه هوية النص بقدر علاماته الابداعية الفارقة. وهو مثل الفنانين الاصلاء فوق الحزازات المذهبية والطائفية، أو لا يُعرف بأي مذهب أو طائفة. لم اسمع منه قط كلمة واحدة متحيزة ضد الانسان كإنسان). ويضيف صلاح كرسي لحلاق يهودي يراقب الفتيات المارات وكان يلمع شعره بدهن الشعر (البرايلكريم) وعندما قامت دولة الكويت اصبح ذاك الكويتي السائب غير المتعلم سفيرا للكويت في العراق. على اي حال فانني اتعاطف مع (نجيب) في وصفه الرومانسي للزبير لكنها كانت في واقعها قرية صحراوية لاتجد فيها غير بضع مخازن و (جايخانات) وكان الرجال يقضون اوقاتهم في (الجايخانات) اما نسائهم فكن مقبورات في بيوت ذوات السراديب لان الزبير كانت اعلى من مستويات المياه. وكنا في الزبير فيما ذكرت من قبل (في بلدة الزبير رايت الشعر ينبجس من الرمال الملتهبة) ويذكر في كتابه ايضا (كنت اسكن الزبير وادرس في مدينة البصرة مجتازا في الذهاب في السيارات العتيقة المطقطقة اربعة عشر كيلومترا من الغبار المتصاعد في طريق الزبير) يقول (وكان عالم كتبنا يشبه نافذة صغيرة تطل على باحة مهجورة

يقول صلاح نيازي زوج سميرة المانع شقيقة نجيب وكانت مدرسة في ثانوية الكرادة الشرقية في بغداد وكانت زوجتي الراحلة (جوليت) زميلتها في التدريس. يقول صلاح (نجيب نخلة من مدينة البصرة جذورها منقوعة بالماء، ورأسها ملتهب بالشمس والثمر. عاطفته كذلك منقوعة بالماء، وعقله مشوب. متصلان ومنفصلان كجذور النخلة وعروقها. يقرأ شكسبير بإكبار وتدمع عيناه لسقط الزند للمعري، يتمعن بمقالات جون رسكن

عن نجيب فوق الانسان (أعظم ما في الموسيقى العالمية: بيتهوفن، هو ضعف إنساني هذا الضعف الإنساني لا يدرس مع الأسف في مدارسنا، وإنما تدرس القوة. والوطنية بنظرهم تأتي من الأناشيد الوطنية. وللحقيقة، أود أن أذكر أنني قضيت اربعين عاما في انكلترا، فلم أجد هناك نشيدا وطنيا في المدارس، وانما يغنون أغاني الشباب التي تظهر في التلفزيون، يصطف الطلاب صباحا، يغنون الأغاني الليلية، أو سواها، ولا يغنون: لاحت رؤوس الحراب، تلمع بين الروابي.. يصنعون من الطبل دبابة صغيرة.. كأن مبحث الإنسان غائب أحيانا عند بعضنا..).

كان نجيب جريئا في قول ما يقول في مواضيع ستاتيكية جامدة محرمة خاصة عن اللغة العربية (مما يبعث على الاستغراب أن اللغة العربية الحديثة لا تحمل مفهوماً ذا أهمية كبرى في تحديد معالم الشخصية المهزوزة المتعثرة المعتمدة على غير ما فيها من مقومات، الشخصية المتعاظمة المتفاخمة بسبب علاقاتها مع مَنْ لهم مكانة اجتماعية أو سياسية أو فكرية مع أن اللغة العربية كانت تعالج في الماضي مثل هذا الانتفاخ الفارغ بكلمة جيدة الدلالة هي النفاجة مصدراً والنَفّاج صفة. النفّاج هو الذي يشير إلى نفسه في مناسبة أو غير مناسبة على أنه استحوذ على اهتمام الكبار أو حاز على الثراء الملفت للنظر أو ملأ دماغه بالمعرفة الأخاذة التي لو كانت معرفة حقاً لحازت من تسليط الضوء عليها لأن المعرفة هي إضاءة داخلية بحد ذاتها). ويضيف (وقد يحصل النفاج على إشباع جوع معين في نفسه حين يخبرك بأن عظيماً ما لم يدعه إلى العشاء فحسب بل كذلك أغاظه بكلمة فلتت منه بعد إفراطه في الشراب ولكنه «أي النفّاج المتحدث» أوقفه عند حدّه أو قد يجد مداورة نفّاجة أخرى بأن يعلن أنه لم يغضب لتصرف ذلك الكبير فقد عرف أنه لا يضمر له سوى المودة المعززة بالاحترام). ثم يقول («للسنوب SNOB والسنوبزم النفاجة» بالانكليزية أبعاد تجعل الانكليزي حذراً من الوصول إليها فليس عند الانكليز من هو أقبح من النفاج لا يعادله في البشاعة عندهم سوى الشخص الذي يفتقد روح الدعابة فإن من أعظم الشتائم عندهم ليس هو الشخص الذي حادت أخته أو ابنته عن طريق الفضيلة بل ثقيل الدم الذي لا يعرف كيف يبتسم للفكاهة غير اللئيمة أي الذي لا يفهم روح الدعابة Sense of humour وبطبيعة الحال فمن يأخذ نفسه مأخذاً جدياً مبالغاً فيه وهو إلى ذلك يطالب الناس من حوله بالاعتراف الارغامي به لما يحدثه وجوده بين كبار الشخصيات من جلجلة وصخب ولما يحدثه فكره من اكتساح مهيب، لا يكون سوى فاقد لروح الدعابة البريئة مثل افتقاد الثلج لإمكانية الإنارة. النفاج إذن لا يعرف النكتة ولكنه ربما يكون مالكاً للسخرية بمن يراهم أضعف منه أو أقل شأناً، والسخرية مؤذية على عكس الدعابة). ثم يقول (والنفاج زئبقي في نظرات عينيه وحركات يده وانزلاقات جسده الهلوع القلق المترجرج وهو زئبقي في ما يهوى وما يكره، وزئبقي في ميوله ونزواته ومبادئه وأفكاره وهو عديم الأصالة إذ لا يمتلك شيئاً نابعاً من أعماقه مائة بالمائة ولا خمسين بالمائة إذ كل ما عنده مستعار أو مقترض وأحياناً يقترض الأفكار والأذواق والعبارات بفائدة عالية جداً يكلفه تسديدها ثمناً باهظاً من الكرامة والصدق والسلم الداخلي).

(أغاية الدين ان تحفوا شواربكم يا امة ضحكت من جهلها الأمم) قالها المتنبي قبل قرون خوالي، اما (يا امة ضحكت من جهلها الأمم) فقد ذكرها (نجيب) بشكل آخر حين قال (شكل الذين لايقراون منهم اكثر من ٩٩,٩٩٩ بالمائة)، (نجيب) كمثقف عالي المعرفة وكانت تملأه المرارة من التخلف العربي في شتى المجالات اذ قال (المشكلة في الانحطاط العربي الحالي ان العربي يمجد نفسه بوصفة نقيا بريئا كريما ذكيا على مجرى الفخر اقديم). الواقع ان العربي يقدس تاريخه اذ ينتقي تاريخه الايجابي دون ان يحاول مراجعة السلبيات ويعتبر تواريخ الآخرين زبالة (غاربج). يقول مامعناه للاسف ان الامة العربية بكاملها ليس فيها دار واحدة للنشر ويقول لو سألت غربيا عن العرب لقال لك (العربي الحديث انسان لا يقرأ ولا يستحي من كونه لايقرأ) ويضيف بان اللغة العربية قاصرة عن تقديم ما يجب تقديمه للانسان العربي ليزود بالثقافات المعاصرة الحديثة لهذا يقول (المشكلة في ذلك الوقت أو لعلها في كل وقت أن اللغة العربية، وحدها لم تكن كافية لتحقيق ذلك الاتصال الذي كنت أسعى إليه، فلابد من الدخول في محيط لغة أخرى أو أكثر من لغة. ووجدت أن اللغة الإنكليزية وحدها لا تفتح سوى نصف باب فحزمت على دراسة اللغة الفرنسية لفتح النصف الآخر كي أستطيع ان ادخل بهو التراث الإنساني). ومن اقواله (فالفرد العربي المتضخم هو الاستعمار الجديد الرابض على صدر الامة هو اساس الطغيان). ذكر (نجيب) فحوى ما قالته احدى الكاتبات عن الارستقراطيين الانكليز (لايشتمون ابدا ولا تغلى دماؤهم غضبا اذا وجدوا احدا في حالة تهدد بخطر اندلاع الكلمات الرخيصة منه، انسحبوا صامتين وتركوا الاحمق يهذي على هواه حتى يبرد ويستحي من نفسه).

عمل (نجيب) في كادر (جريدة الشرق الاوسط) السعودية التمويل في لندن لكن صراحته وضعته في محن لان كتاباته كانت صافية لا لبس فيها ولا التواء وكان قراؤه وزملاؤه في الجريدة ممن يعانون العصاب الذي يحمله اكثر الكتاب والقراء خاصة السعوديين الذين يتابعون اية كلمة او جملة خارجة عن المألوف تجاه كتابات (نجيب)، فاحدث حرجا للجريدة. كتب صعلوك عن (نجيب) رسالة الى رئيس التحرير فائلا (قال لي شخص ساء حظه فدخل بيتك غير العامر وازدراك ازدراءا مقيتا حين وجد تبذير جنوني، اذ عثر عندك على كل اعمال بيتهوفن وشوبان وديبوسي ورافيل وبرامز وشوبرت وفاكنر وباخ وعشرات الاخرين الخ) وقال آخر (قد ابلغني شخص اخر زارك يوما ما زيارته الاولى والاخيرة انك قلت له قولا لايضاهيه في الشناعة سوى كتاباتك). ليتني استطعت كتابة كل ما يمكن كتابته عن (نجيب) لان علاقتي به كانت قصيرة في الصفي الرابع والخامس في ثانوية البصرة. كانت سنتان عامرتان حيث كانت البصرة تفوق بغداد في الكثير من النواحي، كان فيها مطار اكبر من مطار بغداد الذي كان لايتعدى عدة (بنكلات)، اما مطار البصرة فكان بناية في طبقات عديدة وكان فيها مطعما يأمه الكثير من البصريين. وكانت البصرة قائمة على (طريق الهند) وكانت كافة الطائرات المبيمة الى الهند او الشرق تمر بالبصرة مستريحة فتتزود بالوقود ثم تطير. على اي حال اعود الى (نجيب) فعندما كنت في الصف الاول في ثانوية البصرة كان (السياب) في الخامس وكان ضئيل الجسم خاصة رأسه اذ عندما كانت الفتيات يقابلنه كن لايملكن ايقاف ضحكاتهن وهن يضعن ايديهن على افواهن وكان (السياب) يشعر ذلك اذ كان حساسا كشاعر. وكنت اشهاده ذاهبا نحو الخورة ماشيا حيث تقع (جيكور). على اي حال فانني زاملت (نجيب) سنتين نسيت الكثير منها الا (نجيب) يقي في ذاكرتي عامرا لاعيته الظاهرة في الصف ولم التقيه الا عدة مرات وكنت قد سمعت انه غادر العراق (هربا) شأنه شأن الآخرين من الاوضاع التي سادت العراق، غادر الى منبع عائلته السعودية الاصل فكانت نوع من الصعقة لي لان السعودية ليست بالقطر الملائم لـ (نجيب) الا انه انتهى به المقام في لندن مدينة الحرية التي تلائم (نجيب) ثم وافاه الاجل قبل الاوان. وكما قلت قبل هذه عن اللاجئ التونسي (على الحمامي) الذي ساعد (نجيب) في تعلم الفرنسية، في الواقع ان (على الحمامي) كان مدرسنا في (التاريخ الاوربي) في الاول من متوسطة ثانوية البصرة اتذكره ظريفا، وفي يوم وجد احد الطلاب نائما في الصف على رحلته وهو يدرس التاريخ فما كان من (على الحمامي) الا ان خرج من الصف ثم رجع وهو يحمل في مؤخرته قدحا من الماء، عندها رشق وجه التلميذ النائم بالماء فصحى. هذا الحادث لا يحدث في اي مدرسة الا ان (على الحمامي) فعله وبقي في خاطري. والواقع ان ذاك التلميذ كان من الزبيريين الذين يجيؤن الى البصرة ثم يعودون بباصات مجرقعة.

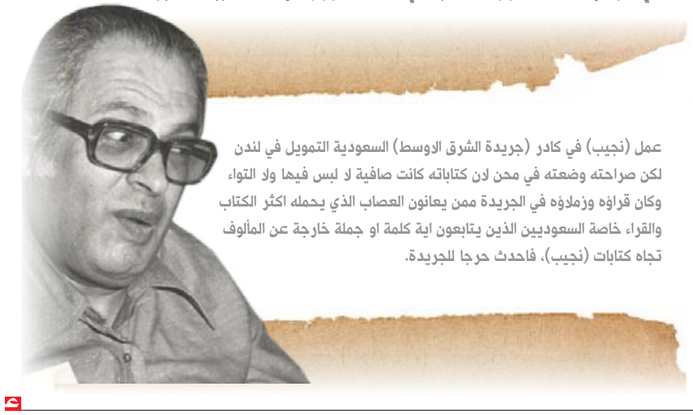

عمل (نجيب) في كادر (جريدة الشرق الاوسط) السعودية التمويل في لندن لكن صراحته وضعته في محن لان كتاباته كانت صافية لا لبس فيها ولا التواء وكان قراؤه وزملاؤه في الجريدة ممن يعانون العصاب الذي يحمله اكثر الكتاب والقراء خاصة السعوديين الذين يتابعون اية كلمة او جملة خارجة عن المألوف تجاه كتابات (نجيب)، فاحدث حرجا للجريدة.

نجيب المانع

والحوار المؤجل في سيرة الكتابة والكتاب

فاطمة المحسن

حين وصلت لندن قبل عقد من الزمن ، تملكتني رغبة لقاء بلند الحيدري ونجيب المانع كي اضاعف معلوماتي عن ثقافة الاربعينات والخمسينات ، كانت تلك الفترة الانتقالية من عمر الثقافة تشغلني وتثير فضولي . لا أعرف لماذا سكنني هاجس غريب تمحور حول فكرة السباق مع الوقت ، مع انني التقيت في مغتربات كثيرة بمن قاربهما السن والمكانة الادبية . كانت لي مواعيد مع بلند الحيدري وتعززت عبرها صداقة جميلة، ولكن نجيب المانع الذي كنت أكثر شوقا للحديث معه ، أفسد الموعد الاول قبل ان أسمع خبر وفاته بأيام . رن جرس الهاتف في ساعة مبكرة من الصباح ، ساعة من يبلغك المرء فيها خبرا مستعجلا ، واذا نجيب المانع يهدر بما يشبه الاسئلة والاجوبة عن الثقافة والمثقفين العرب ، وعن المعرفة الغربية والمعرفة العربية . كان يسأل ويجيب نفسه دون ان ينتظر تعليقا او استئنافا ، يكاد يتطاير الشرر والسخط من كلامه ، فهو لا يعثر على الشتيمة المناسبة التي يوجهها الى الشعراء والكتاب والمثقفين العرب الذين يجهلون العلوم والادب الغربي واللغات والموسيقى . وعندما أنهى حديثه صمت ثوانى ، ثم أكد موعد اللقاء، وسألني كما العائد من نوبة : هل تسمعيني ؟ قلت :نعم . قبل أيام ، ايام فقط ، قرأت يوميات نجيب المانع "مذكرات عمر أكلته الحروف" التي صدرت بعد وفاته ، فلم أندم على موعد لم أذهب اليه مثل ندمي على موعدي مع نجيب المانع . فقد تكشفت لي عبر هذه المذكرات شخصية تختلف كثيرا عما ألفت من الاشخاص ، مع انها تمثل النموذج المشاع لشخصية الاديب العراقي . انه يحمل الكثير من صعلكة وعبثية الذين قيض لي معرفتهم من الكبار والصغار ، ابتداء بالجواهري وسعدي يوسف حتى اصغر روائي او شاعر كتب الادب للتو . ولم أجد تفسيرا لهذه الظاهرة سوى عند نجيب المانع في ما يشبه مذكراته هذه . قد يحرص الاديب المتصعلك الحصول على عمل وروواتب وبدلة ومكتبة وطاولة ، ولكنه يبقى طريد نفسه وطريد خوفه وطريد شعوره بالنكران والجحود ، ينوء بثقل الكبرياء التي يسميها المانع الكبرياء الزائفة . في هذا الكتاب يجد القارئ مقاطع من النادر ان يدونها اديب عربي في سياق الحديث عن نفسه ، فهو يقول :"في علاقتي مع المبدعين لم أقدم مفتاح مدينتي إلا لاثنين : المتنبي ودوستويفسكي ، فالمتنبي أورثني عقدته ولم يورثني اقتداره في العلو عليها : وعقدة المتنبي في نظري هي كبرياء الوجود مع كبرياء الانجاز ، فأودع عندي كبرياء الوجود وحدها وتركني أحاول انجازا لا يتماشى معها ، فسهل على القاصي والداني ان يستشف الوهن والخديعة والتكلف في هذه الكبرياء التي ارتديها بين الحين والحين مثل بدلة تصرخ طالبة ان تتحرر من كياني ."،لا نفقه نحن العرب أدب الاعتراف ، لانه في الاصل سلوك يترعرع في حاضنة الحرية والصراحة والشجاعة ، ولا تعلم العائلة العربية سوى الخوف : الخوف من الغيب ومن الاب ومن السلطة ومن عار الاقاويل . بعض من حاول من الادباء والاديبات العربيات ، كن وكانوا في وارد الاعتراف بمغامرات جنسية هي في الغالب ملفقة ، اما فن السيرة الذاتية كتوثيق للمراحل ومعرفة بالنفس والآخر ، فهو ما يزال يحبو رغم صدور الكثير منه هذه الايام . تكتسب المذكرات عند المانع مسحة اعترافية ، ومرد هذا كما نتخيل ، تشبعه بالثقافة الغربية ، فنجاح السير الذاتية للادباء الغربيين تقوم على قدرة الكشف عن المستور ومحاولة التعرض الى مثالب يجهلها القارئ عن أديبه المفضل ، وهكذا يمضي المانع حتى لو بالغ في ذم نفسه في محاولة عكسية لما يكتبه الادباء والساسة الذين اعتادوا على تضخيم ذواتهم وخلق صورة لأنفسهم لاتشابه الحقيقة . خالط سيرة نجيب المانع الحقيقية ، سيرة خيالية ما برح الكاتب يذكرنا بها في كل فاصل يحاول فيها اضافة او تنشيطا لخياله . يأخذ الزمن من كل أطرافه متنقلا بين دجلة والرصافي وبغداد والسياح ، بين زملاء الجامعة والزبير صحارى البصرة حيث ولد وترعرع ، بين الرجال الذين التقاهم والاماكن التي حلم بها والتي عاشها وعايش اناسها . ولم تمر على قلمه صورة امرأة لا من طالبات الجامعة ولا من زميلات العمل ولا من الشقيقات او الجارات ، وكأنه ما عاش في مجتمع مثل المجتمع العراقي الذي كان في تلك الفترة يبدو مقبلا علي نهضة ربما كانت الافضل في تاريخ تململه ، وبين تجليات تلك النهضة حضور المرأة القوي في الجامعات والمحافل الادبية والفنية . لم يشر نجيب المانع الى صورة امرأة مرت في حياته عدا صورة أمه التي تكلم عنها في معرض حديثه عن ذاته ، ولعل ذلك الشرخ وراء الارتباك العظيم الذي يستشعره المرء في شخصيته . غير ان نجيب المانع في مذاكرته هذه يكشف عن وجه له تتبدى فيه الشجاعة والاريحية ومحاولة معرفة أخطاء وخفايا النفس والقدرة على نقدها ، وهذه السمات تضاف الى رصيده الغزير من العلم والثقافة ، مع رهبة التورط جزافا في ميدان الابداع . وسيصبح نتاجه الشحيح احد المحاور المهمة في كتابه هذا . فهو لم يبلور مشروعا ثقافيا يخصه سواء في ميدان الرواية او النقد او الفكر . اما ترجماته التي زادت على العشرين كتابا ، فلم تضاعف رصيده كما يقول ، لان العرب يرون في الترجمة مجرد مهنة متطفلة :"كانت الامور معي دائما "تكاد ان تصير " كدت اصير زوجا جيدا ، وكدت اصير ابا جيدا ، كدت اصير قارئا جيدا ، وكدت اصير حالما جيدا ، كدت اصير عازفا جيدا ، كدت ، أصير مبدعا جيدا ، كانت تلك (الكادية) مثل سوط يحثني على المضي قدما لعلني أصنع شيئا أفضل ، وغالبا ما صنعت الاسوأ" .. ولعل هذا الحال ينطبق على الكثير من ادباء الخمسينات الذين يقدم المانع من خلال شخصه ، صورة عنهم . ولد المانع في بلدة الزبير البصرية . وكانت كما يقول في سيرته ، توفر فرص التعليم المتقدم منذ المرحلة الابتدائية . معظم اهالي الزبير من أصول نجدية والمانع منهم . وبينهم عدد من الادباء ابرزهم محمود البريكان ، ينقل المانع ذكرياته عن الزبيريين من الطلبة الذين سكنوا معه في نفس البيت ببغداد ، وهو فصل جميل يصف فيه تشكل شخصيته بين قطبين من الاصدقاء : صاحب الشخصية القوية والمتحدث اللبق الذي يسحق الاصغر سناً بحضوره ، والآخر المتفهم فن المشاركة ، اضطره الاول الذهاب ساعات طويلة الى السينما كي يتعلم فن الحوار ، وكان في ض معلوماته عن السينما يكفي لتبيان الجانب المتحدي في شخصيته . والحق ان المانع في هذا الفصل كان أقرب الى الروائي منه الى سارد السيرة ، فهو حساس ومرهف ودقيق في وصف مشاعر الخيبة والاحباط عند فتى لم يبلغ بعد سن الرشد . ولكن القارىء لا يجد في هذه اليوميات مقاربة لشخصيات ادباء مدينته البصرة وهم كثر، عدا السياب ، فقد تجنب الحديث عن البقية خوف تعرضهم الى نقده القاسي .. انه يؤكد قدرته على جلد نفسه ، ولكنه يتردد في التوجه بالنقد الى غيره . لذا وقف المانع في الكثير من فصوله عند شخصيات أطنب في مديحها ، ومن انتقدها حور في الاسم او لم يذكره في السياق . ولكن بعض حماسه يبدو كما الخائف من ان يتعرض الى انتكاسة النقد الذي يكتسب لديه ملمحا قاسيا ومصادرا . لذا نجد في مذكراته هجوماً على الشعراء لا يبقي ولا يذر ، كما ان فيه رغم قسوته انتباهات باهرة ، وبينها حديثه عن حسين مردان ابرز شاعر متصعلك في بغداد الخمسينات والستينات ، وهو دعيّ طريف ، يتناقل الوسط الادبي دعاباته الى اليوم . ومن بين تلك السطور ينقل صورة انطباعية عن الشريحة المثقفة العراقية يتحدث فيها عن بغداد وشارع الرشيد ومقاهي المثقفين فيه :"في ذلك الشارع الذي أتذكره الان بكآبة ، مقهيان متجاوران هما السويسرية والبرازيلية ، كنا نحشر فيهما متأبطين كتبا لانعيا من ترديد ما فيها . ولانها كانت في اعتقادنا نهاية الحياة ظهرت كأنها تدلنا على بداية الخبرة في الحياة ، وكنت انا القادم من الزبير أبدوا لأولئك البغداديين إنسانا ريفيا أو بدويا عليه ان يجلس"مجازيا"في حضرة إبداعهم عند باب البهو الذي مكانتهم في صدارته ، ولست انسى كيف كانوا يتخاطبون باعتزاز من وصل غاية الرحلة ، وبيننا شخصان أو ثلاثة بلغت بهم اختناقة الانجاز الموعود حدود كبرياء صاعقة متسلطة "لعل هذا الوصف فيه بعض مبالغة ، ولكن الاكيد ان الطبيعة الحادة في تقسيم الولاءات الابوية ، كانت بارزة بين ادباء العراق ، فالزعيم الادبي ينبغي ان يملك سمات الحكيم السياسي الذي يفتي ويصادر ويسفه ويبتز. ومن المؤسف ان نجيب المانع كان من بين هؤلاء لاحقا ، فالمراتبية والابوية في الثقافة العراقية أجهضت الكثير من المواهب ، والنقد القاسي واسلوب المباهاة والتسلط على الصغار والمبتدئين ، كان من بين معالم الحياة الثقافية العراقية ، والغريب ان أكثر ممارسي هذا الاسلوب من الادباء العراقيين ، هم ممن عانوا منه في أول حياتهم الادبية . ولكن المانع يتذكر أساسي الاعظمية على نحو مختلف ، والاعظمية بين الاماكن الساحرة ببغداد ، وذكرياته صحبة فؤاد رضا الذي نحسب انه اسم محرف لاحد اساتذة الموسيقى في العراق ، هي بين أجمل ما كتبه في هذا السياق :" كان فؤاد رضا يرسم اشتعال حماسته للموسيقى وما تعنيه موسيقى باخ وفوريه وموتسارت وديبوسي ، وكانت حماسته تعدينا أجمل عدوى ، كان يستبقنا الى اكتشاف الينابيع الخفية تحت صخور حياتنا فيزيح الصخور ويدعونا للشرب ، وعندما عاد من باريس كان اقدر على الكشف وأثرى ، ولكنه صار مستقلا عنا فيها ، يقدمها لنا مع زمرته في البرامج التي نسمعها ، صار في المؤسسة وكان من قبل مؤسسة فوق المؤسسات ."حاول نجيب المانع ان يصوغ في هذا الفصل بورتريت للصداقة لا يشمل هذا الرجل بل يشمل بعض من حمل لهم المودة مرات وباغتهم بسوداويته كما يقول ، مرات أخرى ، انه يخرج برأي جميل عن الصداقة والاصدقاء يقول فيه ان التفهم يقتضي ان نعاين كل شخصية من اوجهها المختلفة ، وليس لنا ان نقف عند وجه واحد . كان المانع يبحث عن ثقافة راقية ، وتطارده كلمات مثل العامية والابتذال والاعتيادية ، ولا ندري مدى دقته في استعمال تلك التسميات ، ولكن افكاره في هذا الصدد تعكس البعد الغربي في ثقافته ، والانكليزي على وجه التحدي ، وهو بعد يسفر عن محاولته دراسة النثر العربي كمحتوى وشكل ، فهو يرى ان وضوح طه حسين في احيان يسد الطريق على الذكاء بتكرار البديهي والسير من البسيط الى الابسط :"يكتب طه حسين الفقرة التالية :" كنا نلغو اثناء الصيف فلنجد اثناء الشتاء " في هذه الكتابة شيء يذكرني بكتابات احمد حسن الزيات المحملة بفراغ قاتل "اللغة التي يرى المانع انها مفتاح الإبداع ، تحتاج أكثر من جمال الجُمل والمفردات ، فهي طريقة تفكير واسلوب حياة ، ربما يبالغ في وصفها ب " وجدت لغة بلند الحيدري والسياب والبياتي ونازك الملائكة في اعمالهم الاولى تبشر بلغة الشروق اللغوي الجديد ، وفهمت لماذا توقف الرصافي عن الاجابة لأن لغته لغة المغيب اللغوي ." ولعل من بين ذكرياته المهمة وصفه شخصية السياب ويكشف فيها عن جوانب يجهلها القارىء ، فقد عمل المانع معه وصاحبه في بغداد والبصرة ، وهو يروي نوادره وطرائفه التي كان كما يرى المانع ، تغيب عن شعره المغرق بالآلام والكوارث ، ولكنه يرى في قدرته على تقليد بعض الشخصيات في عائلته على نحو مضحك ،احد مصادر الحكاية في شعره ، كما يروى لنا قصة عمله والسياب في شركة نفط البصرة في درجة وظيفية متدنية بعد حصولهما على الشهادة الجامعية ، وكيف جعل منهما الانكليز مجرد مداومين اقرب الى الخراف التي تنقل بشاحنات منذ ساعات الفجر الاولى الى الشركة ، حسب تعبير المانع . وإذا نشأ المانع في الجانب الصحراوي من البصرة ، فقد نشأ السياب في الجانب المائي من البصرة ، كما يقول ، وهو يستطرد مؤكدا ان شعر السياب يجري فيه الماء جريان المجد في شعر المتنبي ، ولعل عبارته تلك تخلص اهتمامات النقد بهذا الجانب في شعر السياب . مقالات المانع عن السياب من أثمن الذكريات التي دونت عن السياب ، فلم يكتب عن شخصه الا القليل ، في حين خضع شعره الى دراسات كثيرة . يبقى كتاب المانع يمثل فصلا من فصول الثقافة العراقية التي يقول انها لم تكن يوما مكتملة ، ويعدد اسباب القصور التي جعلت الادب في عين كتابه "فعل عبثي مسكين لا يتوجه نحوه سوى المهوسين او الذين في عقولهم خلل ما مادام فعل الكتابة لا جدوى منه ولا مكان له فلتتخط الكتابة الصفة البرقية ، والاشارة العاجلة ، الاشارة الصائتة ، الكشف المدوي . " وتلك في النهاية سمات هذه المذكرات ، غير انها تفسر السر الكامن وراء الشعور بتبعثر الزمن ولا جدواه في فعل الكتابة عند الاديب العراقي .

جريدة الرياض
2002/8/29

لم يشر نجيب المانع الى صورة امرأة مرت في حياته عدا صورة أمه التي تكلم عنها في معرض حديثه عن ذاته ، ولعل ذلك الشرخ وراء الارتباك العظيم الذي يستشعره المرء في شخصيته . غير ان نجيب المانع في مذاكرته هذه يكشف عن وجه له تتبدى فيه الشجاعة والاريحية ومحاولة معرفة أخطاء وخفايا النفس والقدرة على نقدها ، وهذه السمات تضاف الى رصيده الغزير من العلم والثقافة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2283)
السنة الثامنة
الخميس (20)
تشرين الاول 2011

قبل منتصف الليل في الشارع، ومن خارج حائط غرفة سميك، مبنى بطابوق اللبن والطين، تسمع نساء البيت في داخله، الجالسات حول منقلة فحم جمره يخبو، ضربات قبضة صبي عائد من سهرته. تحصل بين النسوة، المتسامرات المتدفئات في الغرفة، حركة متوقعة فرحة، وتنهض من بينهن، امرأة قاربت الخمسين، معروفة بالتضحية ونكران الذات، ملبية نداء الصبي، الذي يعرف كيف يوصله، في ذلك البيت المترامي الاطراف، الخالي من الكهرباء. تسرع المرأة المضحية دوما، بخفة نبيلة، جعلتها اماً ثانية باستحقاق، وسماها الصغير والكبير بـ (الام فطومة). تلتقط فانوسا نفطياً مصوصناً، قابعاً في زاوية، كمن تقطفه، رافعة اياه سائرة باتجاه الباب الخارجي لتفتحه له.

المؤثرات الثقافية في ادب نجيب المانع

سميرة المانع

لن تنجز مهمتها بصورة خاطفة، سيما انها كانت جالسة في بيت الحريم وعليها ان تعبر البيت الثاني المخصص للرجال، الفارغ معظم الوقت، الذي يطلق عليه اسم (الديوانية) واصلةً الباب العريض الدرفات. تتجة بخطاها الحثيثة الدؤوب، حريصة الاّ ينفذ صبر ذلك الصبي الصغير ببرد الشتاء الصحراوي الجاف في ناحية الزبير بمدينة البصرة.

لن يكون ممكنا سنة١٩٣٧ ان يضع الاخير مفتاح البيت بجيبه، كون المفتاح ثقيلا، طوله يقرب السبع أنجات، كما لا يستطيع اسماع قرع مطرقة الباب لحديدية الثقيلة لبعد المسافات بين الباب وتلك الغرفة الدافئة حيث النسوة جالسات.

بعد مضي اكثر من خمسين سنة، يخبرنا نجيب، في كتابه (ذكريات عمر اكلته الحروف) ماذا كان يفعل ذلك الصبي ومن كان معه في سهرته، حيث يقول: "وحين اعود بالذاكرة الآن الى اولئك الشبان الذين كانوا في عمري، أي في الحادية عشرة او الثانية عشرة، عند عودة اسرتنا ثانية الى الزبير، اشرع في تكذيب ما يتداوله علماء التربية من ترهات حول ضرورة التعليم المناسب للسن، حينما كانت المعرفة تُطلب لذاتها لا من اجل الشهادة. كان الناس يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب وهم في الثامنة من العمر، ولا تغيب عن افهامهم قضية في النحو والصرف وهم في العاشرة. وفي الغرب ايضا، كانوا قبل حمى الشهادات، يحفظون الالياذة والاوديسة باللغة اليونانية وهم في العاشرة ... كنتُ اذن اسير مع صبية يعرفون كيف يعربون الآيات القرآنية كلها، وكيف يطبقون بحور الشعر على المعلقات والشعر الاموي والعباسي بسليقة منسابة لا تتعثر ابدا. ومن جولاتي معهم عرفتُ بعض ما درسوه واخذتُ جانبا مما تعلموه. لم تكن لدينا هوايات او رياضات سوى ان يقرأ بعضنا على بعض احدى القصائد، وكان بيننا من يقرؤها قراءة وجدانية هي التي شكلت عندي العلاقة التنغيمية مع الشعرحتى الآن ..." يستمر نجيب متحدثا عن اصحابه الذين تركهم ليعود لداره: "كانت تلك الحنجرة المفارقة للطفولة الواقفة على اعتاب الرجولة، تعبر عن روح نقية لم تتلوث كما تتلوث البيئة بالمعابثات التلفزيونية ولم تحترق كما تحترق لفافة التبغ بالمتعة السينمائية الزائلة، فكأنها كانت تبرهن على ان الشعر يحفر في اعماق الجسد شعيرات دموية تجري مع الشعيرات الدموية الموجودة فيه وتتساقى معها مساقاة الأواني المستطرقة.. الدم والشعر، الدم والفن، الدم والدهشة، الدم والرؤيا، الدم والاستفاقة تجري كلها في الدورة الكهربائية الواحدة للجسد الحي.."

نعود مرة اخرى الى نجيب وهو صبي، عندما تفتح له الام الحنون (فطومة) الباب، ليغوص في ظلام البيت الحالك، الذي اعتاد على الاختفاء به،فلا يراه اهله الا اثناء الفطور والغداء وربما العشاء. البيت، معظم الوقت، خال من اب دائم الحضور. انه غائب تلزمه وظيفته الحكومية ان يتنقل دوما تاركا عائلته في هذا المكان الهادىء، مطمئنا عليها بين حين وآخر اثناء عودته، فيجدها نامية في تلك الناحية الآمنة.

وعى هذا الصبي ليجد نفسه فجأة رجلا وسط بيت مملوء بالنساء، يتوقع منه ان ينمو بسرعة كبيرة كتعويض عن ابيه الغائب.لتعطى له الصلاحيات والاهمية والمهابة مبكرا،الامر الذي، ربما، لا يتوفر لمن كان على شاكلته، تحت سقف واحد مع ابيه دوما.

كان ابوه الموظف البسيط هاوياً للمطالعة بشكل ما، يحمل معه، اينما ذهب رزمة من المجلات المصورة، اغلبها مصرية، يتسلى بها في وحدة السفر، يبعثرها امامه، عندما يرجع لبيته، اما لاكمال قراءتها او لتركها لاهله للمطالعة او للعبث قبل ان ترمى.

هناك، ايضا، مكتبة صغيرة خاصة به ثابتة موجودة قرب سرير نومه، يحافظ عليها الجميع، بشيء من التوقيروالاحترام. تطال يد هذا الشاب، الاكبر بين اخوته، رفوفها، مستلاً بين حين وآخر كتابا، معظمها كتب تراثية صفر أكل الدهر عليها وشرب من كثرة الاستعمال، اهمها كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه او اجزاء من كتاب (الاغاني) للاصفهاني، ليقرأ فيهما كما يفعل والده. لكن هذه التنويعة القليلة من الكتب صارت بعد مضي سنين كثيرة، مصدر تندر هذا الشاب ومزاحه، خصوصا بعدما تضايق من تأنيب ولوم وانتقاد والده له، مرارا، اثناء ما يراه مبذرا نقوده مسرفاً في شراء كتب جديدة باستمرار والتي كثيرا ما ارهقت ميزانيته واضطرته للاستدانة، وهي زائدة عن حاجتة،كما بتصور الاب. لم ينته الامر عند هذا الحد، وانما كتب ونشر الشاب، عندما كبر، قصة قصيرة مبنية،في بعض مغزاها، على تعلق اب بكتاب واحد قديم، لا يمل من قراءته وترديد معلوماته بصورة مستمرة، وسنة بعد اخرى، الى نهاية عمره. لكن الوالد لن يعبأ بهذا الامر، ولن تهمه القصة وان كانت تقصده بالدرجة الاولى.

نعود مرة ثانية لنتابع القصة الاصلية والتي نحن بصدد تطورها، وذلك حين يختفى الشاب نجيب من ناحية الزبير، كلية، ليظهر في بيت عمه بوسط مدينة البصرة القديمة. قيل انه ذهب لاكمال دراسة المرحلة الثانوية لعدم توفرها في ناحية الزبير. لا يستغرق الامر وقتا طويلا حتى نراه وقد اصبح متمسكا بامور الدين بصورة دقيقة ملزمة. يؤم الصلاة في (جامع السيف) القريب من البيت الذي يسكن فيه، يقرأ القرآن.وكعادته في الاحاطة بكل موضوع يتعلق به روحيا، يريد ان يُلِمّ بكل تفاصيل الدين مدركا جوهره واهميته وغايته بالاساس، وعلى رأس ذلك، الاحسان للضعفاء واليتامى والمساكين. لقد استاء من احدى قريباته يوما عندما اخبرته انها شاهدته منحنياً يدس نقودا براحة احد المتسولين القابعين قرب باب الجامع. كان يأمل ان تكون صدقته،كما اوصى بها الدين، خالية من المظاهر الاعلانية والادعاء، أي بمنتهى الخفية والكتمان.

يعود في فترات العطل لبيتهم بالزبير،شاهده اهله وقد بدأ بتعليق صور رجال دين ملتحين معممين مصلحين متنورين على الحيطان، رجال مثل (محمد عبده) و (جمال الدين الافغاني). نهر اخته الصغرى، يوما، وعمرها لا يصل التسع سنوات، حين رآها واقفة امام المرآة تهز كتفيها مقلدة راقصة مصرية اسمها تحية كاريوكا،اثارت اعجابها، وقد رأتها بفيلم سينمائي اثناء زيارتها الاخيرة للبصرة. فترة قصيرة ويختفي الشاب نجيب مرة ثانية. قيل انه ذهب الى بغداد لاكمال دراسته في كلية الحقوق هناك.مضت شهور ليعود بعدها، وقد جلب معه كتبا ومجلات ابجديتها مختلفة عما سبق ان شاهدوا. بات معلوما انه صار يقرأ اللغة الانكليزية الآن. يريد من اهله، ايضا، ان يستمعوا معه الى الموسيقى الكلاسيكية،يشاركونه حبه وهواياته الجديدة. اسمعهم قطعتي شهرزاد والدانوب الازرق، بداية، في باحة بيت الزبير بالمساء، ثم تدرجت الانغام حتى وصلت الى سمفونيات بيتهوفن وغيره منسابة او مرعدة في جو بيت الزبير الصافن الحائر. استمر،كعادته، يلم بالموضوع الالمام الكافي بصبر دؤوب، حتى تكدست الاسطوانات والتسجيلات عنده ففاقت اعدادها الآلاف،اصبح البيت كتبا

واسطوانات اينما سار المرء، كمستودع او مكتبة عامة في سنوات عمره الاخيرة.

ابتدأ يقرأ لاهله،بين حين وآخر،يقرأ لهم في اوقات الفراغ، عندما تكون امه الحقيقية والام الثانية (فطومة)، التي تساعد الاولى في تربية الاولاد وشؤون البيت، جالستين يشربان الشاي عصرا. يريد ان يقرأ لهما ولاخوته مقاطع من كتاب بيده يترجمه فورا اثناء القراءة، اخبرهم ان عنوان الكتاب هو (الحرب والسلام) ومؤلفه روسي. اجتهد كي يترجم لهم مشهد بطلة الرواية الصبية (نتاشا) اثناء رؤيتها للقمر في ليلة ساحرة. او منظر الامير(هنري) متأملا بأسى مخلفات القتلى والجرحى في ميدان الحرب، بعد معركة دامية في حروب نابليون.

بعد فترة وجيزة،دُقّ ناقوسُ الخطر في البيت، اخبرهم نجيب انه مراقب من قبل الشرطة، مهدد بالقبض عليه. سرى الفزع عندهم كمرض معد، واسرعت الوالدتان للنجدة.جمعت كتبه ودفاتره بسرعة كبيرة، لتنقلاها، تحت جنح الظلام، الى خارج البيت، الى مكان بالزبير لا يخبران به احدا. ماذا جرى؟ تبين انه مراقب لانتمائه الى (حزب التحرر الوطني) وتبين، بعدئذ، انه واجهة او غطاء سياسي تابع للحزب الشيوعي العراقي. صار نجيب مبتعدا، ما بين قريتي (السرّاجي) و(مهيجران)، القريتين التابعتين لقضاء ابي الخصيب بالبصرة، ومنهما انحدر اصل الام وفيها يسكن اهلها. بقيت الوالدتان خائفتين تتحدثان همسا فيما بينهما متوقعتين شرا. وهذا هو اول احتكاك لهم جميعا بالسلطة الغامضة المفزعة.

لم يستمر الخوف طويلا، انتهت العطلة الصيفية بسلام. غادر نجيب، كغيره من الطلبة بمدينة البصرة،بالقطار الى العاصمة بغداد حيث توجد الكليات. افرجت قليلا، تنفست الوالدتان الصعداء. لكن القلق عاود الظهور مرة ثانية. شعروا ان نجيب لا يزال غارقا في المعمعة. لا يكف عن الانهماك مع غيره من طلبة الكليات ببغداد بالمظاهرات المضادة للحكومة بسبب معاهدة بورتسموث مع الانكليز سنة ١٩٤٨ بالاضافة الى ما كان يجري في فلسطين وما ترتب بعده من همّ وحسرة عند العرب حتى الساعة. في تلك السنة بالذات انهى نجيب دراسته متخرجا حاملا شهادة الحقوق التي لم يكن يعيرها ادنى التفات،بقدر اهتمامه بما هو داخل صناديق ثلاثة خشب كبيرة،جلبها معه من بغداد، فطرها يوم عودته إلى بيتهم في حوش بيت الزبير، امام الجميع، والجو قائظ، كما يفطرون البطيخ والرمان. تحلق حوله اخوته الصغار مفتشين عن مغنم لهم،عن لعب او حلوى، فلم يجدوا في هذه الصناديق الخُلّب سوى كتب متناثرة باحجام واشكال والوان. تساقطت ليلمها نجيب بعناية طبيب ويأخذها عنده في غرفته من دون تعليق يذكر.

كما هو واضح، جاء توا من بغداد، وكانت، كما وصفها البعض من عاصر تلك الفترة، في قمة فضولها وطموحها وآمالها واحلامها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. يتبارى ويعج بها اصدقاؤه، الخليط من بني البشر، فيهم المسلم واليهودي، المسيحي، والصابئي وغيرهم من مختلف الملل والاديان والاقوام. انصهروا في تلك المدينة العريقة جميعا،لقرون،متحابين متجاورين، يعلم الواحد الآخر، يضيف شيئا للكل باسلوب تنافس متناغم مثير. لا يمر ببالهم انهم سيتفرقون يوما. تركهم عائدا للزبير، وهو يفتقدهم يروشون في شارع الرشيد او جالسين في مقهى البرازيلية، او يتمشون على شاطيء دجلة في شارع (ابو نواس). كان البعض من هؤلاء الاصدقاء يدير ويشرف على مكتبتي (مكنزي) و(الرابطة) المتخصصتين باستيراد آخر اصدارات الكتب الاجنبية من دور النشر الكبرى في الخارج. حاول نجيب التعويض عنهم بتلك الكتب والاسطوانات بالصناديق، والتي جلبها معه إلى الزبير ثم البصرة، كلفه حملها الكثير وأثارت استغراب من حوله. يغلق باب غرفته عليه،معظم الوقت، مستمعا الى الموسيقى، قارئا هذه الكتب ليطلع على آخر ما صدر من شعر ورواية وافكار نقدية صارت زادا له ولجيله في نهاية الاربعينات وبداية الخمسينات من القرن الماضي المتلهفين للاسراع بنهوض شعبهم المكبل بتقاليد الجهل والتخلف لقرون واللحاق بالقرن العشرين سواء أكانوا في بغداد أم غيرها، يتعلل بالحديث ومن معه بالزبير، حول الابداع المعاصر، في بيئة جافة جامدة مكررة، لا يوجد فيها الا بيوت مقفلة صامتة، ومقبرة تسع كل اموات مدينة البصرة وما يجاورها، تسمى مقبرة الزبير التي دفن فيها التابعي (الحسن البصري). أو بالبصرة ومعه بدرشاكر السياب. يقرآن سوية بالانكليزية، الآن، في قيلولة الظهر، مستلقين على حصران الخوص في غرفة الضيوف، ما كتبته الشاعرة الانكليزية ايديث سيتول تحت المروحية السقفية، في بيتهم الذي استأجره أهله في تلك الايام منتقلين من الزبير إلى البصرة، معجبين بالشاعرة الانكليزية، او يستمعان لموسيقى الكاتدرائية الغريقة لـ(ديبوسي) سوية من أحدى الاسطوانات التي جلبها معه من بغداد.

لقد تغير نجيب عن ذي قبل. صار صامتاً، ملولا. يهمل القراءة للام الحقيقية والام (فطومة). يلتجئ من الآن فصاعدا لاحباب لا يعرف اهله عنهم شيئا. بين حين وآخر،تسمع من غرفته، نبرات اصوات غريبة لا يفهمونها، تصلهم فيستمعون اليها بفضول، عرفوا بعدها انها تنبعث من اسطوانات تدورعلى جهاز حاكي قديم اشتراه من سوق شعبية بالزبير من مخلفات الجيش البريطاني آنذاك، يتعلم به اصول لغات لا تهمهم.تتكرر هذه الاصوات، تعيد نفسها مئات المرات.صار معلوما بعد حين انه يتعلم اللغة الفرنسية. وكعادته حين ينهمك في شيء، يثابر بجدّ واخلاص في التعلم، بمفرده، من دون معلم وبجهوده الشخصية العصامية فقط. اصبحت قدرته في هذه اللغات، بعدئذ، التي تعلمها بهذا الاسلوب، مشهودا لها، فقدترجم اكثر من عشرين كتابا، اثناء حياته، قسما منها قررت الجامعات تدريسها مثل رواية (جاسبي العظيم) لسكوت فيتزجيرالد، على اعتبار انها نموذج للطلاب يحتذى في الترجمة الجيدة سواء في القاهرة ام في بغداد.

نتدارك الامر في تسلسل الحوادث قبل الاخيرة، في سيرته، عندما خرج عن صمته يوما، وكان يوما مشهودا حزينا. لم يستطع تحمل وحدته في غرفته طويلا، عاد يطلب مشاركة اهله. خرج وبيده كتاب صغير مصور يطلع الآخرين على صوره بانزعاج واستنكار. فغرت الافواه وجحظت الاعين كلما قلب صفحاته بين يديه، ليجدوا مناظر رعب لا يمكن ان يتصوروها. كان نجيب يطلعهم على ما جرى في بلاد بعيدة عنهم، لاقوام اخرى بعد الحرب العالمية الثانية وما فعل بعضهم لبعض بسبب الكره والقسوة. لقطات مصورة بالكاميرا مخيفة مفزعة تقشعر منها الاجسام وترتجف المهج. بلدان اوربية طالما احب ان يستمع لانامل ابنائها وهم يعزفون الآلات الموسيقية بارق واروع الالحان، وكثيرا ما اعجب بعقول فلاسفتها ومفكريها الكبار. لم يعد باستطاعته ان يصدق الامر. يطلع اهله على ما جرى لهم وكيف تصرفوا وفقدوا صوابهم للقضاء على خصومهم بهذه الطرق الفظيعة الوحشية. تناول الجميع الكتاب هلعين مفزوعين ينظرون بالشهقات والصيحات المستنكرة. الا ان هناك شعورا خفيا بالاطمئنان عندهم. البلدان بعيدة عنهم، الكتاب مكتوب باللغة الانكليزية، والعالم ليس عالمهم، لاخوف عليهم اذن. ياخذ نجيب الكتاب منهم شارحا لهم ان البشر في هذه البلاد المنكوبة لاقوا الاهوال بسبب كره بعضهم لبعض متعصبين لاسباب عرقية ودينية. دهشوا صامتين مشفقين، يحمدون ربهم على ان ما جرى هناك لا علاقة لهم به ولا يمكن ان يحصل على ارضهم ولأناسهم الطيبين الذين يستعين، معظمهم، بالامثال الشعبية معتبرين الاخلاق الحميدة والذكر الحسن، بعد الممات، هما اهم ما يجب ان يشغل المرء به يومه، طالبين المغفرة.

لم تعد الدنيا كما كانت بعد تلك الفجائع. بدأ نجيب يراجع ويشك بكل ما كان يسمع وما كان يرى. بذرة التشاؤم ولدت ونمتْ باطراد، لم يعد يصدق براءة الانسان وحسن طويته كما كان في السابق. صار يتابع اخبار الاشرار، الانذال،المزورين، والظالمين على هذه الكرة. كبر الاخوة طيلة هذه السنوات، ايضا، خرجوا للعالم الواسع من الشرنقة الضيقة في البيت. صارت لهم اراؤهم وشخصياتهم المستقلة لولا ان نجيب الذي عاش قبلهم، كما يرى، وخبر الحياة بخيرها وشرها، يتوقع منهم اصغاء تاما له. لديه كتب كثيرة ومجلات عربية واجنبية على مدار الساعة لا يعرفون هم بها. فاجأهم ذات يوم بذم ستالين ونعته بالدكتاتور، احتج احد الاخوة، متذكرا وفاة ستالين قبل اكثر من سنتين، حين نعاه المذيع من محطة موسكو مخنوقا بالعبرات وكيف جرت مراسيم جنازته الموقرة. غضب نجيب منه خصوصا وسبق ان رأى منظره حزينا متأثرا، ملتصقا بالمذياع، ليلتئذ، فما اهون استغفاله دون ان يشعر. لم يكن نجيب يقرأ المحي، بالطبع، لكن قدرته على القراءة والاستماع الى لغة اجنبية مكنته من ان يرى باكثر من عينين ويسمع اللغط بوضوح اشد من سماع اخوته لاصوات الابواق الكثيرة المنتشرة.

بعد فترة وجيزة،دق ناقوس الخطر في البيت، اخبرهم نُجيب انه مراقب من قبل الشرطة، مهدد بالقبض عليه. سرى الفزع عندهم كمرض معدٍ، واسرعت الوالدتان للنجدة.جمعت كتبه ودفاتره بسرعة كبيرة، لتنقلاها، تحت جنح الظلام، الى خارج البيت، الى مكان بالزبير لا يخبران به احدا. ماذا جرى ؟ تبين انه مراقب لانتمائه الى (حزب التحرر الوطني) وتبين

أُعلنت الجمهورية العراقية يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ في المذياع. كان نجيب غائبا في فينا لامر يتعلق بوظيفته. لكن هذا لم يمنع المتابعين لنشاطه الادبي من ان يجدوا مقالا له في مجلة (الآداب) البيروتية عنوانه :(ثورة، موزرات وامريكي). يكشف المقال جزءا من عودة نجيب للتفاؤل والامل. يبشر ويرجو من العهد الجديد ان يفتح للشعب العراقي صفحة جديدة بيضاء مشرقة يستحقها، تدعو للتسامح،العدل والمساواة بين العراقيين جميعا، وبينهم وبين الانسانية كلها.

عاد الى بغداد بعد فترة قصيرة ليرى بام عينه أحقا ما نشد وما تصور؟ لم يكن حظه سعيدا بعد هذا الغياب، خاب فأله بما رأى. كانت البلاد متبلبلة متحيرة. الكثير من التمزقات يعانيها اخوة بالداخل وآخرون من خارج البلاد يؤججون الوقود بالشعارات البراقة ليحترق الجميع بنار مستعرة. وجد محكمة منتظمة الكل يستمع لها يوميا، تعرض جلساتها بالتلفزيون تحاكم افرادا من العهد الملكي وغيرهم، فيها من تناقضات العراق ما اخافه من نهاية مصيرها. فهي، باعتقاده،لا تعطي النموذج الجيد للعراقيين، ليروا كيف تصان هيبة العدل، وتظهر الرزانة والوقار والحكمة باعلى صورها. شرع بابداء رأيه، كعادته دوما، بصراحة وبصوت عال، سواء بجلساته الخاصة أم على صفحات المجلات والجرائد وبالاخص في جريدة (الاهالي) للحزب الوطني الديمقراطي، التي شجع أن ينشر فيها تلك الايام.كتب حوالي سنة ١٩٥٩ سلسلة مقالات حول معنى النظام الديمقراطي، اهمية فصل السلطات الثلاث وتداول الحكم، تحدث عن الحرية والعدالة، الرحمة والمساواة، كقيم جليلة لها شأنها. نشر هذه المقالات، بجرأة، وهو في وظيفة حكومية كبيرة، في فترة حكم عبد الكريم قاسم،كاول مدير عام للمنتجات النفطية المؤممة مؤخرا في العراق. لم يصمت للنجاة بجلده ولينال الحظوة من اجل المناصب الاعلى. كتب مقالاته بتجرد بعيد عن المصلحة الشخصية، وبشكل حيادي قل نظيره بين الكتاب، آنذاك. في وقت اشتداد الصراع السياسي بالبلد، والاهتمام بالاشخاص والزعامات بدلا من الالتفات الى القيم والمبادئ والثوابت التي يعتقد ان أية ثورة حقيقية لا تقوم الا بوجودها.

احتكم اهل بيته حين يكون موجوداً في المكان، كي يغلقوا جهاز التلفزيون، اخيرا، لئلا تؤدي تعليقاته على ما يجري على الشاشة الغارقة بالمديح والرضى عن النفس، الى ما لا تحمد عقباه.

لقد مرتْ على العراق بعد (محكمة الشعب) ومناظر شاشة التلفزيون المتباهية بنفسها، دواه ومظالم وعذابات لا يمكن ان تخطر ببالٍ اهله عندما اطلعهم قبل سنين، على الكتاب المصور لمآسي الحرب العالمية الثانية في المانيا. صار منظر (المسيرات الجماهيرية، المارشات العسكرية، اغاني النصر وكل مواكب خيلاء الحرب) جزءا من نظام حياتهم اليومي. اليوم، وأنا أقرأ لكم، بدت المحكمة المشهورة تلك ارحمَ واعفَّ، بالمقارنة مع غيرها، ولا شيء يشبهها. دمّر العراق، بعدها، كما نعرف، مع سابق اصرار.شرد ابناؤه في انحاء المعمورة، وكان العراق في الماضي، سخيا شهما كريما، طالما لجأ اليه ابناء الجيران كلهم،من دون استثناء. استوطنت فيه اقوام متنوعة.اخلصت له واحبته وصار وطنها. جعلت للعراق حيوية ولبغداد سحرها الفاتن،كزجاج ملون مُعشق. نجيب نفسه، من جهة والده، من نجد الجزيرة العربية، والنصف الآخر يتقاسمانه العربي والكردي معاً.كيف انقلبت الآية الآن وما الذي جرى تُرى؟!

أتذكره عندما كان يقول لنا، بعد تردي الاوضاع وانقلاب الحال، ربما، لو تجنبنا الفخر والتعلق بالشعارات والاشخاص والانتصارات، وتذكرنا مضار سوء استعمال العواطف اللاعقل لها، لنجينا العراق ولكان لنا شأن آخر، يختلف عما هو عليه الآن. يعتقد، متأثرا،كان علينا الا نبالغ في الزهو والخيلاء،مستنكرين اذلال أي متهم منا يقف امام المحاكم فنبخل عليه في الدفاع عن نفسه ليلقى الجزاء العادل بعد محاكمة موضوعية خالية من الاهواء. يردد دائما : "ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته" كلما جاء ذكر المحاكم والحكام.

كالعادة، في مثل هذه الظروف،فصل نجيب من وظائفه اكثر من مرة بالعراق، اثناء زمن عبد الكريم قاسم وبعده. تمرمر كما تمرمر معظم ابناء الشعب العراقي.حوكم لافكاره سنة ١٩٦٣المُحنة وكان مصيره مظلما لولا ان أنقذه حاكم اديب هو فؤاد التكرلي لا غير، فكان له الفضل في انقاذه من الجاهلين بامره اثناء التحقيق تلك السنة، وسبق ان عرفه شخصيا وخبره. شُرد، في سنوات عمره الاخيرة،كماشُرد غيره من ابناء العراق. فارق،كما يفارق بعضاً من روحه، مكتبته النفيسة العامرة واهل بيته ببغداد ليحط بلندن وحيدا، حائرا سنة ١٩٧٩.

معظم اصدقائه فارقوه، لا يعرف عنهم شيئا.ابعدوا في عمليات تهجير وتخوين وما شاكل من تُهم. يرى نفسه محاطا ويسمع بانواع التحزب والعشائرية والمحسوبية من اعلى الى ادنى المستويات في وطنه. صار تغليب العنصر الذاتي على المصلحة العامة شيئا عاديا مقبولا بين الافراد. المنافسة النفعية والنرجسية في ذروتها. بدت ثقافته وبالاً عليه. سمة الساعة تسويق البضاعة باي ثمن للصعود وخطف الشهرة الكاذبة. يفضل على افكاره المنتقاة والتي هي نتاج مخاض طويل وسهر ليال، الوجبات الثقافية السطحية الاستهلاكية السريعة على الماشي. اشتدت الغيرة والحسد والنفاجة بين المعارف لتردي الاوضاع في الداخل معكوسة على الخارج. لا يستطيع السباق مع التيار الجارف بل لا يرغب في ذلك. ابواب العراق موصدة عليه الا اذا اصبح عبدا مطيعا. جهوده وعمره يضيعان.

ابتدأ قلبه يتسارع نبضه، صار يشعر ان الحياة التي صارع وضحى بالغالي والنفيس من اجل ان تكون شيئا جميلا نقيا محترما جديرة بالبقاء،ليست سوى حيلة وخدعة للبعض وبالنسبة له لا معنى لها. لم يبق عليه حين كنا نودعه في بابه بالزيارة الاخيرة، وانا احذره بغباء من مغبة التدخين، بينما هو يبتسم ساخرا، لسان حاله يقول:

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا

جسارة التعبير.. أنموذج نوعي لكتابة المقال

عدنان حسين احمد

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد كتاب جديد ينضوي تحت عنوان "جسارة التعبير" للأديب والمترجم العراقي الراحل نجيب المانع الذي توزعت كتاباته بين الرواية والسيرة الذاتية والترجمة والمقالة وقد تألق، والحق يقال، في أغلبها. إن ما يميّز هذا الكتاب عن بقية كتبه التي جاوزت العشرين كتاباً هو في كونه إضمامة لست وعشرين مقالة نقدية في الفنون القولية وغير القولية، الأمر الذي يتيح لقارئ نجيب المانع أن يتعرّف على كم كبير من آراء هذا الكاتب في شؤونٍ الأدب والفكر والتشكيل والموسيقى والترجمة، وأكثر من ذلك في علم النفس والسياسة واللغة بمعناها الواسع.ينتمي نجيب المانع إلى جيل الخمسينات من القرن الماضي، ذلك الجيل الذي كان يكتب المقالة النقدية كمشروع لكتاب مؤجل، لذلك ترى مقالات غالبيتهم محبوكة رصينة لا ترهل فيها أو إطناب. ومَنْ يقرأ مقالات المانع التي نحن بصددها سيكتشف من دون عناء كبير أنه يقف أمام دروس نقدية في كتابة فن المقال الأدبي أو الفكري أو الفني وما إلى ذلك، وهو يدرك جيداً بأن هذه المقالات المبثوثة في عدد من الصحف والمجلات العراقية والعربية لابد وأن تأخذ شكل كتاب أنيق يغري القارئ العربي. ولولا الجهود الكبيرة التي بذلها الشاعر والمترجم صلاح نيازي وزوجته الروائية سميرة المانع لما عرف هذا الكتاب القيّم طريقه إلى النور. تكشف المقدّمة المركّزة التي كتبها الدكتور صلاح نيازي عن حبه الكبير لنجيب المانع ولمنجزه الأدبي والنقدي في آن معاً، كما تكشف عن الصدمة الكبيرة التي تعرّض لها نيازي إثر الرحيل المفاجيء لصديقه نجيب المانع.

ذلك الجيل الذي كان يكتب المقالة النقدية كمشروع لكتاب مؤجل، لذلك ترى مقالات غالبيتهم محبوكة رصينة لا ترهل فيها أو إطناب.

ومِن يقرأ مقالات المانع التي نحن بصددها سيكتشف من دون عناء كبير أنه يقف أمام دروس نقدية في كتابة فن المقال الأدبي أو الفكري أو الفني

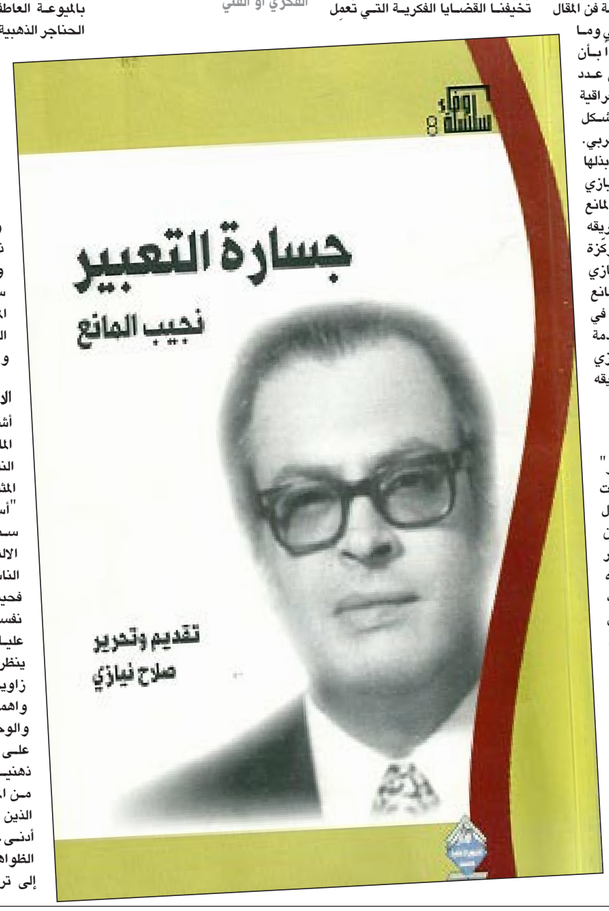

أسئلة متواترة

لنعد إلى "جسارة التعبير" ونقرأ فيه أولى المقالات النقدية التي تتمحور حول موضوعات فكرية قبل أن نتحرف إلى جانب أدبي أثير لدى المانع وهو مناقشة هذه الرواية أو التعاطي مع ذاك العمل الأدبي. في مقاله الأول "بعض الحرية في كثرة الأسئلة، وبعض العبودية في كثرة الأجوبة" لا يلج المانع إلى صلب الموضوع مباشرة، وإنما يمهّد له، وهذه تقنية موسيقية معروفة، بواسطة الحديث عن الطفل النابه الذي يسأل عن كل شيء يحيط به تقريباً، فلاغرابة أن تكون رحلة الطفل في الحياة مشبّعة بالأسئلة المتواترة.يشير المانع في متن مقالاته إلى كُتّاب ومفكرين وفنانين يمحضهم حُباً من نوع خاص مُستشهداً برؤاهم الثاقبة ومستعيناً بأفكارهم المتوهجة مثل المفكر الإسباني أورتيجا جاسيت الذي قال بأن الفلسفة بدأت عندما أخذ سقراط يسأل أسئلة غير مطروحة سابقاً من قبيل: مالعدالة؟ وما الخير الأسمى؟ وما الجمال؟ ويعتقد المانع أن البشر قبل سقراط كانوا مثل الكُهّان الذين يعبّرون عن آرائهم بحس فوقي لا يقبل الجدل أو المراجعة، الأمر الذي يُحرم العامة من حق المشاركة أو الاستفسار. ينتقد المانع أرسطو لأنه اعتبر الرق نظاماً مفروغاً منه ومقبولاً بلا تشكيك مما دفعه للطعن في معقوليته واستبصاره وعمق تفكيره.

كسر حاجز الخوف

في مقاله الموسوم "المواضيع الوديعة التي يخيف الناس بها الناس" يقول المانع بأن غالبية الناس ينظرون إلى كلمة "فلسفة" وكأنها أرض جرداء قاحلة، ولكنها في الواقع أرض خضراء معشوشبة. ويتساءل المانع قائلاً: لماذا تُخيفنا القضايا الفكرية التي تُعمِل الذهن، ولا تُرعبنا رواية بوليسية مليئة بمناظر الدم؟ ثم يلتمس المانع من القارئ الكريم أن يقرأ بضع صفحات من كتاب "مقالة في المنهج" لديكارت وإذا وجدها صعبة عسيرة الفهم فإنه سيقدّم له اعتذاره العميق.

الميوعة العاطفية

يترجم المانع كلمة "Sentimentality" بـ "الميوعة العاطفية" وهي ترجمة دقيقة تقف بالضد من كلمة "عاطفي" التي تعني بالإنكليزية "Emotional" وهذه الالتماعات البسيطة تكشف عن حساسية المانع في اللغة الإنكليزية. يفسّر المانع الميوعة العاطفية بأنها "التعبير الفضفاض لتغليف شعور اعتيادي"، ويرى أنها تكثر في الخُطب الحماسية والشعر والنثر. وأن أحد مقاييسها هو الموقف من المال والحصول عليه بأقصر الطرق وأهونها بواسطة دغدغة مشاعر الدهماء وإثارة غرائزهم السفلى. يعتقد المانع بأن أغاني مادونا وألفس بريسلي مشبّعة بالميوعة العاطفية، بينما أصحاب الحناجر الذهبية الذين يعبّرون عن أدق المشاعر لا ينتشرون بأكثر من واحد بالألف من انتشار العملة الرديئة!يورد المانع أمثلة أخرى في هذا الصدد من بينها أن السينما تضج بالميوعة العاطفية وأبرز الأمثلة على ذلك الأفلام الهندية، ويستثني هنا أفلام ساجاياتيت راي ذات المستوى الفني العميق الذي يخاطب الأرواح والأذهان.

الالتفاتة النفسية

أشرت فيما سبق بأن المانع مهتم بالجوانب النفسية للشخصية المثقفة تحديداً ومقالة "أسطورة العمق بلا سطوح" تتناول هذه الالتفاتة النفسية لبعض الناس المرتكبين نفسياً. فحينما تناقش هذا المرتبك نفسياً في موضوع ما يردّ عليك من دون خجل "بأنه ينظر إلى هذا الموضوع من زاوية أعمق"! لأنه يعتقد واهماً أنه الشخص العميق والوحيد الذي يتوفر على التماعات وإشراقات ذهنية لا يتوفر عليها غيره من المثقفين "السطحيين" الذين انحسرت ثقافتهم إلى أدنى حد. يعتقد المانع "أن الظواهر والبواطن تنتمي إلى تركيبة واحدة قابلة لـلإدراك" وليس هناك شيء عسير الفهم كما ذهب عمّانوئيل كانت وأسماه "الشيء في ذاته". ويُورد المانع في مقالة "رامبو العابر الهائل" أسماء عدد من المبدعين أمثال رامبو والسيّاب وكيتس وبوشكين وليرمنتوف ويقول بأن هؤلاء جميعاً عبروا هذه الأرض مسرعين. وحينما يتحدث عن إبداع رامبو رغم عمره القصير يصفه بأنه كلاسيكي وحديث في آن معاً. كما يقول بأن رامبو لا ينتمي إلى مدرسة معينة، لأنه ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى كل المدارس. انتبه المانع، مثلما انتبه نقاد آخرون "إلى التكسير أو التهديم اللغوي الذي كان يمارسه رامبو، وهذا التهديم ليس ناجماً عن انعدام القدرة اللغوية كما يفعل الشعراء الضعفاء، وإنما هو تهديم بنّاء"! وقد توصّل المانع إلى أن رامبو هو مهدّم للغة الفرنسية وبانٍ لها في الوقت نفسه. يستشهد المانع بمقولة أندريه مارلو الذي وصف بيكاسو بجملته الشهيرة: "أن بيكاسو من أعظم الهدّامين البنّائين في تاريخ الفن" وهذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان.

الإلهام والسرقة الأدبية

يفرّق المانع بين القارئ الحقيقي والناقد المضطر لقراءة أي شيء حتى وإن كان عادياً لارتباطه بدار النشر أو لعمله بهذه الصحيفة أو تلك المجلة. ويرى أن "بعض النقاد مجرد قرّاء، وربما قرّاء من الدرجة الدنيا لأن القارئ المرتوي بما يقرأ يختلف عن قارئ ينبعج انبعاجاً سرطانياً بما يقرأ وإن يكن من زبد القول". كما يفرّق المانع بين الإلهام والسرقة والأدبية، فلا يسمّي شكسبير وإليوت وجيد وكوكتو وجويس سرّاقاً لأنهم اعتمدوا على خمائر قصصية سابقة، بل أثنوا عليهم حينما حولوا الأساطير إلى تجارب إنسانية جديدة. يرى المانع بأن السرقة لا تكون سرقة حقيقية إلا إذا أخذ أحدهم قصة لتيشخوف وغيّر عنوانها وأسماء شخصياتها ثم ذيّلها بتوقيعه الخاص. أما استلهام قلق الشخصيات ووحدتها وتعاطفها فيعتبره المانع استلهاماً لا غير.

مقبرة الروح

تثير الأنشطة الفكرية اهتمام المانع كثيراً، لذلك فهو يفرّق بين نوعين من الأنشطة الذهنية والعضلية. وهو يرى بأن المعري الذي نادراً ما يحرّك جسمه الناحل هو أنشط بكثير من الملاكم المغرور الذي يتقافز على الحَلَبة. كما يعتقد المانع بأن الحضارة الرومانية هي حضارة نشيطة جسمانياً، ولكنها كسلى في الجوانب الذهنية والجمالية. كما يعتقد في السياق ذاته بأن ألمانيا لم تنجب مبدعاً واحداً في حقبتها النازية لأنها كانت مقبرة حقيقية للروح والفكر والإبداع.

عن موقع ايلاف

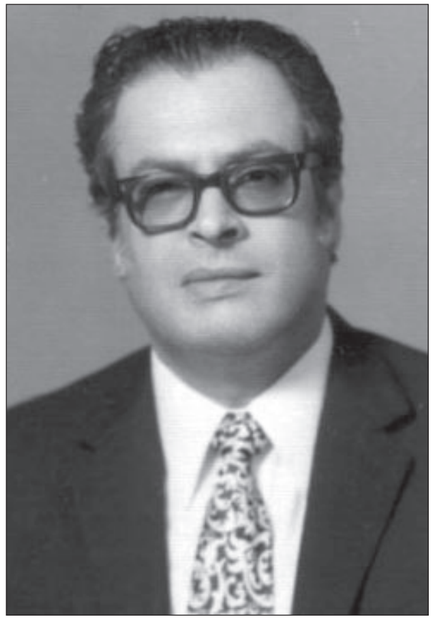

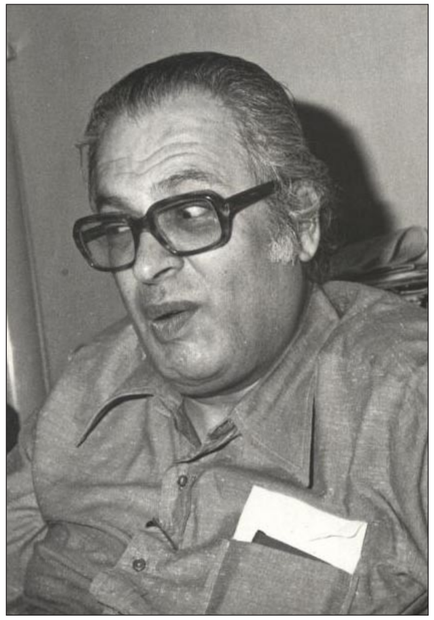

ذكريات نجيب المانع: حمولات بين يدي القارئ

لؤي حمزة عباس

ما الذي يمنح كتاباً ما حساسية وعمقاً، ما الذي يجعل من قراءته لحظة إنسانية نادرة للحوار مع الذات، للإنصات لترنيمها في سعادتها وحزنها، في دهشتها بالعالم، وفي اتصالها الجميم بالأشياء، لتبدو الذات، جزءاً حياً، يانعاً ومكتملاً، من العالم، وهو الجزء الذي يكون بمستطاعه تدوين اللحظة الإنسانية بدفئها ورهافتها وهي تعيد إنتاج وقائعها بروح لا يعوزها الصدق ولا تنقصها الجرأة في المواجهة والاكتشاف، مواجهة ما حدث لإعادة اكتشافه في سبيل تحديد موقعه في تاريخ الشعور العام، هذا الشعور الذي يندر أن إلتفتت إليه ثقافتنا، لوعيه وتفهّم طبيعته، وهو ما يظل بحاجة، فيما يبدو، إلى أناس بمواهب خاصة تتعدى حدود العلاقة المباشرة مع العادي والمألوف لتصل عبر تماسها مع الحدث إلى حيّز خفي، صعب المنال، إنه الحيّز الذي يفتح نجيب المانع الباب لدخوله عبر كتابه (ذكريات عمر أكلته الحروف) في نوع من سخاء إنساني نادر، فالكاتب لا يتحدث، على عادة كتّاب السير والمذكرات، عن ذاته مركزاً للعالم بل يتحدث عن العالم ناظراً لذاته فيه، وهو العالم الذي يتسع بين يديه ليفتح بوابات الزبير، مدينته الأم، متأملاً طبائع أناسها، ويفتح بوابات البصرة ليتحدث عن عراقتها وسلام أبنائها، مثلما ينفتح عراق الأربعينيات بين يديه عالماً واسعاً يخطو من عتمة العصور الثقيلة المظلمة إلى أنوار الحداثة والتقاطات شعرائها.

وعي الكاتب

وعي الكاتب مثل شعاع من الضوء ينير أشياء عدة في وقت واحد: الصداقة، والثقافة، والموسيقى، والمدينة، والتعليم، موضوعات تتفتح مثل أزهار يبللها مطر الروح الحانية فتلتقي كل منها حمولاتها بين يدي القاريء في بناء يفيد من منجزات الرواية ومبتكرات صياغتها، فلماذا يحرّم عليّ؟ يتساءل نجيب المانع "وأنا أكتب هذه السيرة الذاتية الأدبية أن أجرؤ على الاستفادة من حرية كافكا مثلاً حين جعل الشاب جريجوري سامزا يستفيق ذات صباح فيجد نفسه قد تحوّل إلى حشرة كبيرة"..

في مذكراته يقترح المانع أسباباً تتخذ معها كتابته شكل المذكرات المضادة، فيها تخرج السنوات من تعاقب الزمان، ويمتنع الزمان عن أن يتحرّك تحرّكه في الحياة الطبيعية، إنه يسعى في نشدانه الفن إلى استخدام تكنيك الرواية والشعر والرسالة والنقد ويدخلها "في بوتقة تاريخ نسيته إلا من لمحات وتاريخ لا أتذكر منه سوى موته وتاريخ يعيش معي ويعبرني ويموت بعدي"، وإذا كان التاريخ هو صوت المؤرخ وجلاء نظرته للتجربة الإنسانية، فإن الذكريات هي روح صاحبها وما تقطّر من تجاربه في تماسه مع ما حوله، إنه يؤرخ للعالم في الوقت الذي يؤرخ لحظته الشعورية،هذه اللحظة التي تظل من دون فضيلة الاعتراف لحظة فارغة، مجرّدة ومتعالية، فقد حفلت ذكريات المانع بفضائل عدة أهمها فضيلة الاعتراف التي يبدو الرجل فيها إنساناً بما يحتمله من ضعف وقصور، لكنه سريعاً ما يتضح لقارئه ضعف الواضح الصريح، وقصور المتمكن العفيف في نظره للعلاقات البشرية في ضرورتها وهشاشتها ولا واقعيتها، الأمر الذي هيأ لصاحبه فرصة للمعرفة خارج ما تقوله الكتب، فالبشر أنفسهم كتب مفتوحة وتجارب ثرية، إنها قدرة التعلم أو قل ملكته التي تتطلب تنازلاً للنعرف كما عرف المانع "أن وراء ما نقوله صادقين يكمن كذب دفين، وهو كذب يغتفر إذا لم يؤد إلى القتل، ولكن المشكلة في مجتمعاتنا إن كل كذبة سكين تحز عنق الآخرين".

الإنصات للآخرين

تمكّن هذه الفضيلة صاحبها من الإنصات للآخرين ومعاينتهم والكتابة عن خفي حيواتهم، كما في حياة السياب وهو شخصية مركزية من شخصيات الكتاب، بما يضيف لما عُرف عنه ملامح تكمل حضوره في الثقافة العربية، فلن يكتمل وجه المرء بما يقوله هو عن نفسه وما يعمل على رسمه وإضاءته مهما كانت براعته، ثمة تفصيل يظل بحاجة إلى من يضيؤه من الخارج لتكتمل الصورة، إنه أحد دروس ذكريات نجيب المانع.

ومثلما يتفحص المانع ذاته يتفحص ثقافة عصره، لأنها بعض من الذات ومكوّن أساسي من مكوّناتها، هذا المكوّن الذي يخضع فيه الرصافي وطه حسين والعقاد والحكيم وأحمد شوقي لمراجعة ذاتية موضوعية في آن، منبعها فهم صاحبها لموقعه في الثقافة، فهم مادته التواضع وقوامه الشعور العالي بقيمة الإبداع التي تمكنه من النظر إلى مدارس عصره وهو يكتشف أن كلا الزعيمين، حسين والعقاد، ينقصه أمران: الأول أنه لم يحط بأبعاد المدرسة التي فتح أبوابها، والثاني أن كلاً منهما بعيد عن المدرسة الأخرى، مثلما يخوض في واحدة من أهم مشكلات العقل العربي: مشكلة الشعر التي تغلّف حياتنا وتمنحها ضبابية توجهاتها أمام تراجع النثر الذي يرى فيه "انتهاء للهجية ودخولاً في العلاقات البشرية الصحيحة".

تحرير الروح

يضيء المانع علاقته بالأدب عبر تركيزه على الإنسان، إن الأدب في تجربة المانع محرر للروح من إغراء الكراهية، هذا الشعور الذي يقيّد الروح بحباله، موثقاً ارتباطها بما هو متدن، إن أجمل قصيدة يصيرها الإنسان هي أن يكون خالياً من الكراهية، ولكن الخلو من الكراهية لمدة طويلة عسير جداً، فما بين المتدني والرفيع يتحرّك بندول الإنسان متفحصاً ذاته، متأملاً اغترابه عنها وصولاً إلى الغربة العميقة التي أدركها المانع في واحدة من لحظات أزمته "هناك ما يجعلني أظن أن الهبوط من الجنة هو هبوط إلى الغربة البشرية".

ليكون الانفصال عن الذات والآخر متاهة في صحراء رمالها العلاقات الإنسانية المبددة، بما يؤدي لإنعاش طاقة التدمير لدى الإنسان، إن التدمير، بالنسبة له، لا يكمن في قدرة إنسان على قتل إنسان آخر فحسب، بل في قتل أسئلته، في قتل محاولاته لتصحيح مساره، في قتل توجهه نحو الحقيقة، قبل قتله جسداً.

من اوراق نجيب المانع

ام كلثوم: الغياب المستحيل والمؤسسة الوجدانية

مع ام كلثوم يكون الغناء بالدرجة الاولى فعلا من افعال الاكتراث. انه توغل سعيد الاكتشاف في الطوايا الخفية عن الوجدان وهي تتعامل مع فنها بجدية نابعة من شخصيتها القوية لكن المتعاطفة، وعن الهيمنة على كل شيء من كلمات ولحن وجمهور هيمنة متزاوجة مع الحب الذي تتنازل به كل شيء من كلمات ولحن وجمهور. لم يكن اداء ام كلثوم في غالبيته تكسرات الوجع في الحناصرة ولا تهويشات الصبية في الشوارع ولا رقصا هينا كهز البطن ولو ان عبد الوهاب الذي الف لها اقل اغانيها جودة مثل انت وعذابي وهذه ليلتي استوحى مع الاسف جو هز البطن وزاد ذلك جناية ان وضع لها موسيقى كريهة سمجة مألى بالتلطف والمراهقة الشائخة اخطر انواع المراهقة.

ولنعد الى ام كلثوم الاصيلة، ام كلثوم (ياللي كان يشجيك انيني) و (الاهات) و (الحلم) و (الاطلال) والاعاجيب الاخرى. انها تبرهن هنا على الندرة والاستثناء في تاريخ الفن حيث تكون عبقرية الاداء بحد ذاتها انجازا ابداعيا فالمعتاد ان الذين يقومون باداء الحان غيرهم كمغنيين او اقوال غيرهم كممثلين انما ينالون مكانتهم الفريدة ممن هم اكبر منهم فمن يكون جون كيلكد ولورانيس اوليفييه لولا شكسبير ومن يكون كاروزووجيلي لولا اوبرات فيردي وبوتشيني والشيء نفسه يصدق على المغنيين العظام الذين تخصصوا باوبرات فاغنر مثل لورينز ميلكيور وكيرستين فلاكشتاد، ذلك ان كل هؤلاء ليسوا اكثر من اقمار تدور حول افلاك كبيرة عاكسة نورا لا ينبع منها بصورة مباشرة. غير ان ام كلثوم وهي مؤسسة موسيقية ومؤسسة وجدانية معا، يدور حولها التأليف الموسيقي واهبة الذين لحنوا لها مسوغات وجودهم، ولا استثني منهم حتى افضلهم واعظمهم ف ينظري وهو زكريا احمد الذي فهم شيئين فهما مخبولا بالمحبة المتزنة ايقاعا وهذان الشيئان هما امكانيات الموسيقى الشرقية الخالصة وامكانيات صوت ام كلثوم ومن قراءته الذكية لهاتين الكتابتين الهيروغليفيتين استطاع ان يؤلف ما يقف في مصاف الاجمل بين الالحان شرقيها وغربيها.

توصف اشياء كثير بانها معجزة ويكون الوصف احيانا من قبيل التزويق للكلام المنطلق على عواهنه او على السياسة المبالغة المباحة او جريا على تضخيم الشيء ليسهل تصديقه على قائله قبل سامعه. ولكننا اذا وصفنا صوت ام كلثوم بانه معجزة، فلا اعتقد اننا نسير على غرار ذلك. انه معجزة بسبب كونه اولا يحوز على اشد المتطلبات الجمالية دقة واعتانا من صفاء النبرة وعلو الطبقة والكفاية في الايصال بدون ميكروفون والنقاوة المطلقة في الذبذبات ابتداء من مستوى الهمس حتى نهاية مدى حنجرتها وكذلك طول ضبط التنفس خصوصا في اغاني الاربعينيات والخمسينيات حيث وصلت معها ام كلثوم الى غاية النضج في التعبير. ثم ان صوتها معجزة لانه لا يستطاع مجاراته او تقليده فهو اداء منته في كل اداء، اداء لا يقبل الاعادة لا من قبل الاخرين فهذا امر مستحيل ولكنه لا يقبل الاعادة حتى من قبل ام كلثوم نفسها فهي تقدم الاغنية الواحدة عديدا من المرات ولكن باداء مختلف الظلال ودقائق التشويه والتطريزات الصوتية بحيث تبهر الجمهور الذي يستمع اليها فكانه يستمع الى انبعاث جديد للاغنية التي كان يألفها منها. ثم ان صوت ام كلثوم معجزة بسبب ايحائه بالجو الذي تريد ام كلثوم ان ترسمه بكل ما في طاقاتها العجيبة على التمثل والتقمص والانجذاب. فاذا قالت كلمة الليل فانت في الليل، واذا نطقت اسم النيل فكأنك تمد يدك لتحسس مياه ذلك النهر الخالد، واذا قالت (هلت ليالي القمر) فقد انتشر لاءلاء القمر على صفحة الخيال ان يكن الخيال وثابا مشاركا، واذا تحدثت عن الشوق فاي معنى للشوق لا يوجد في مرسم حنجرتها المترامي الاطراف؟

×الكاتدرائية الرائعة:

ام كلثوم تستطيع احضار الاشياء

لنعد الى ام كلثوم الاصيلة، ام كلثوم (ياللي كان يشجيك انيني) و (الاهات) و (الاطلال). انها تبرهن هنا على الندرة والاستثناء في تاريخ الفن حيث تكون عبقرية الاداء بحد ذاتها انجازا ابداعيا فالمعتاد ان الذين يقومون باداء الحان غيرهم كمغنيين او اقوال غيرهم كممثلين انما ينالون مكانتهم الفريدة ممن هم اكبر منهم فمن يكون جون كيلكد ولورانيس اوليفييه لولا شكسبير

وتجاوزت هذه اللا ملموسية التي عاناها فنانو الانسانية خلال الحضارات السابقة، وربما صار فعل الحب بديلا عن الحب، ولكن كيف تستطيع الغاء حرية عدم الاستجابة بين طرفين احدهما فقط هو المحب والطرف الاخر كائن حر وحرية الثاني مصدر عذاب الاول كما ابان ذلك عدد من العباقرة في تصوير الوجدان واكتفي الان بذكر اثنين منهما هما بودلير وبروست. ستظل اغاني ام كلثوم، وهي لحسن الحظ باقية بفضل التسجيل كما تبقى الجبال والانهار ستظل معبرة عن شيء من هذا الذي يبقى من الحب بعد حل استحالاته الاجتماعية والطبقية كما يبقى شعر بوشكين وكيتس وكما تبقى مدائح المتنبي في كافور بعد انتهاء نوعية العلاقة بين الشاعر والممدوح وسر البقاء في كل ذلك يكمن في بلوغ الانجاز مرتبة تعلو على مواضعات العصر فيما هي تنبثق عنها. انها امور تنبع من شروط زمانية ومكانية لتتمرد بفعل كمال داخلي على المكان والزمان مثلما تتمرد كي توجد بيننا حتى اليوم تلك الاطلال التي لا ندري اين تقع والتي وقف عليها النابغة اصيلانا يسائلها فمييت جوابا وما بالربع من احد.

لست مقتنعا بما يقوله بعض الناس من ان كثيرا من الكلمات التي غنتها ام كلثوم ذات قيمة عظيمة، ذلك ان عظمة ام كلثوم الخالصة هي ان صوتها يلامس ذلك التراب الذي تتشكل منه كثير من تلك الكلمات السخيفة احيانا. فيحيله الى ذهب بسيمياء الابداع السحري. وهذا الامر ينطبق على كثير من المعجزات الفنية مثل اوبرا سوتسارت (الناي السحري) فكلاهما سخيف وانجازها جليل.

وصوت ام كلثوم الذي تغلغل في وجدان الملايين حبا ووجدا وتوقا غنى ايضا بقوة ومضاء وتوهج والعلاقات التي بينها واحضار الصور والاوصاف وتدرجات معانيها بذلك الصوت الخلوق من عدة تيارات فعلى السطح يمنح المتعة العاجلة التي يريدها المستمع المسرع، وفي طبقة ابعد هناك النشوة المتهلة وفي الطبقات الابعد من بحرها الصوتي يتشكل اللؤلؤ في اصداف تتكاثر مع كل غوصة تغوص بها تلك الحنجرة لاعماق الكلمات وما تحمله من دلالات عاطفية.

بسبب الجو الذي يعيشه مجتمعنا الشرقي فان موضوع ام كلثوم كان على الاغلب موضوع (الحب المستحيل) وقد تجيء اجيال بعدنا ترى ان الحب المستحيل بصفته هما قد صار من اثار الاجداد المنحجرة. غير اني اميل الى الوثوق بان تلك الاجيال لن تكون من الجمود بحيث تهدم كاتدرائية رائعة كصوت ام كلثوم فالكاتدرائيات تحمل اليوم حتى لغير المتدينين ادهاشا معماريا. لم يعد الحب في الغرب يمثل استحالة حب تريستان وايزولده ومع ذلك فان اوبرا فاغنر بهذا الاسم والتي تسمع اليوم اكثر مما سمعت في اي يوم ربما تجاوزت موضوعها المستحيل وصارت تعلن عن جوهر الحب في ذلك الجريان الدموي في شرايين الاوركسترا والاصوات البشرية، ولا اظن ان العالم سيتجاوز ذلك مادام الوجه البشري يحمل عينين يسحرهما الحضور الاخر وما دام الزمان بوتقة تصهر اجسادنا وتصهر ماهو اقوى منا كالتوق والحنين والرغبة وتوكيد الذات وانكار الذات امام الفرد الذي يكون لتلك اللحظات او الايام او السنوات او العمر كله مختارا من الجنس البشري كله للدعوة الى المشاركة في الاشتعال ولا يريد ذلك الفرد المختار الاستجابة لتلك الدعوة.

ربما استطعنا الغاء كثير من الانكسار والخيبة والمذلة في الحب وربما كيفية تشكلها في قلادة وتلقيها هدايا انتصار فوق صدر الليل.

غناء الاحضار والوعي:

ارى ان المغنين نوعان فهناك مغنو النوم ونسيان الذات، وام كلثوم من النوع الاول مهما يقل كارهوها القلائل انها تزيد من عمق الاحساس ومن ملموسية العالم حين تغني (سهران لوحدي) مثلا، يصير السهر والتوحيد موجودين وجودا موضوعيا من كلمات تصف حالة معينة الى بنيان ندخل فيه ونسكن ونلمس جدرانه ونفتح نوافذه ونرى منه الى الفضاء البعيد وحتى الظروف مثل معاك او معايا او ادوات الاستفهام مثل ليه وامتى تغدو عبر غناء ام كلثوم المجيد محملة بكل صميمية المعية او السؤال او الدهشة.

اما مغنو تغييب المعاني ونسيان الذات وضياع الحالة النفسية فيمسخونها الى كلمات جوفاء ثم يمينون الوعي بالعالم عن طريق اماتة الكلمات والمعاني.

كما ارى المغنيين من جهة اخرى ينقسمون في العالم الى نوعين فهناك مغنو مستوى الكاباريه وهناك مغنو مستوى المعبد. ام كلثوم من النوع الثاني حتى اذا غنت فوق كاباريه حقيقي وكل المغنيين العرب الاخرين تقريبا من مستوى الكاباريه حتى اذا غنوا في حرم او محراب. مغنو مستوى الكاباريه لا يحترمون مهنتهم وبالتالي لا يحترمون جمهورهم فهم لا يصدقون ان الغناء يمكن ان يكون قضية جدية وليس الجد انهم يبكون ذلك انهم يفعلون هذا كثيرا جدا ولكن الجد يكمن في التواصل المبدع وفي ادراك مهمة الحياة والايمان بان هذه المهمة لا تقل نبالة وعسرا عن المهات الاخرى.

لكل فنان عظيم اسلوب في تدوير المعنى والدخول فيه ثم ربطه مع المعاني الاخرى ربطا عضويا، واود ان اخذ مثالا على ذلك من الموسيقى الكلاسيكية. حين نسمع ضربات البيانو الاولى في سوناتا بيتهوفن رقم ٢٣ الملقبة بالاباسيوناتا لاول مرة نعرف على الفور اننا في حضور مع الجملة البيتهوفينية النابعة عن شخصيته ولو لم تستدر الجملة الموسيقية بعد كل تكويناتها ثم تمتد الضربات امتدادا عضويا كأنه يسري في المكان لا في الزمان كما هو شأن الموسيقى ثم تتضح الفقرة بكامل تجسدها وتستشعر معها بلاغة الاحساس الذي استطاع ان يصوغها بمثل ذلك النسيج، انت مع تلك الموسيقى في مواجهة قولة تامة، في حضور مع نطق كامل وهكذا ام كلثوم (والفضل يعود ايضا الى الملحنين) فان دورانها على جزئيات المعنى من اجل الاحاطة بكليته تتضح بجلاء في اغانيها العظيمة، فما ابرع الطريقة التي يتحول بها صوتها من جملة (وافضل احبك من غير ما اقول) الى جملة (ايه اللي غير احوالك) اننا نجد هنا استدارة مذهلة ومثلها حين نقول (فضلت اعيش في قلوب الناس وكل عاشق قلبي معاه) الى الانتقالة البالغة الامتاع حين تقول (وسابولي الكاس) هذا وليس سوى ام كلثوم بوحدها من يستطيع ان يحيط بكل المدارات العاطفية الموجودة في اغنية (فات الميعاد) فبأي تدرج نفساني ومع اي تيار مشحون بالوجد تستحوذ ام كلثوم على المستمع الذكي وهي تزيح اسوار الصمت القائمة بين الناس وما ان تزيحها حتى يتكون بينهم نوع من اخاء خاص، اخاء موضوعه حب صوتها. تحدثت قبل حين عن الحب من وجهة نظر محدودة فلماذا ننظر اليه في نطاقه الضيق الشائع لغويا؟ الا يمكننا ان ننظر اليه في بعض الاحيان بفضل نبل ادائها ونقاوته على انه الحب الذي يذكره محي الدين بن عربي وابن الفارض والحلاج؟

ارجو ان لا اكون قد بخست ملحنيها اشياءهم وخصوصا اولئك الذين تفتقد قرائحهم، بوحي من حضورها ومتطلبات شخصيتها وطبيعة صوتها اللاشبيه له.

ومن افضل ما لديهم. ان زكريا احد والقبصجي والسنباطي والموجي وبليغ حمدي صاروا مع هذه الموسيقية العظيمة موسيقيين رائعين، ولم اذكر عبد الوهاب لاني اجد موسيقاه التي طوق بها ام كلثوم تشي في اغلب اجزائها بالعقم الابداعي الذي يعاني منه خلال الثلاثين سنة الاخيرة وبكل صراحة انا من الذين يكرهون موسيقى انت عمري وهذه ليلتي كراهية تحريم ولو ان الامر بيدي لمنعتها اكراما لذكرى ام كلثوم وابقاء للجمال الثر، الذي فاض من حنجرتها الكريمة، من غير تلويث.

ان مجرد رؤية الرقص البشع الذي تؤديه سهير زكي على انغام هذه ليلتي الابشع ليحطم اعصابا فولاذية.

سيدة اليقظة:

حين تسافر مع ام كلثوم فانت لا تحتاج الى زاد كثير بل يكفي ان يكون لديك ضعف مقدس تجاه الكرم واذا تزودت بهذا الزاد البسيط فان مدها الرحيب الموجة يأخذك الى جزيرتها المأهولة باغنياتها الالف من هنا تعيد تواصلك بالعالم عن طريق محطات ارسال واستقبال ليست بعدد اغانيها بل بعدد كل الوافدين ولا تخش ازدحام الجزيرة بالحجاج فانها لا تضيق بالمحبين اذ هي ليست جزيرة بل كونا وهي لا تضيق الا بالكراهية والشح ونفاق الوجدان وفي الجزيرة مستشفيات تحاول معالجة هذه المخلوقات الشوهاء ومن يستيأس من علاجه وتطريقه وتجميله وتخليد شبابه وحكمة قلبه فانه يحمل في سنه الليل بعيدا عن تلك الجنة الى الفيافي التي ينفى اليها مجذومو الشعور وغير الجميلين في النفس، الى حيث توجد مخلوقات غريبة ليست لها اذان ولا عيون ولا شفاه.

والامر المفرح ان تلك الجنة موجودة في منعطف كل زقاق وعند التقاء كل الشوارع وينفتح عليها كل شباك ولكن الرهيب المرعب في الامر ايضا ان الفيافي المقفرة موجودة في منعطف كل زقاق وعند التقاء كل الشوارع وينفتح عليها كل شباك انها الصحراء التي تتسرطن في القلب. الصحراء التي يكون فيها حكم ام كلثوم معصيا، الصحراء التي يهيم فيها العصاة وكل مفاخرهم انهم اقوى من ان يضعفوا امام سطوة الجمال، ولا يدرون انهم بتلك القوة المزعومة اضعف المخلوقات طرا، ولا يعلمون ان هناك ولاء يكون معه الانسان سيدا حقا وان هناك رفضا يفضي الى العبودية، وايا عبودية اشنع من رفض الحياة عبر الموت فيها.

«نام الوجود من حواليه» وهل ينام الوجود الان في نومتك الاخيرة يا سيدة اليقظة، يا اميرة حكمت بكل ما فيك من لطافة ورهافة وتواصل مع الوجود والورد والمجد والحنان، حكمت على عيوننا بالسهر الجذلان حقبا من الزمان لن يجود بمثلها الزمان. وهل ينام النيل؟ الان فقط نعرف معنى الفراق الذي طالما انطلقت انوار صوتك ترسمه ولم ترسمه انذاك بهذه اللوعة كما يرسم اليوم. لا، لم يكن فراقا ذاك الذي كنت تتحدثين عنه وانت تعطين الوجود انفاسك الزكية.. تعطرين الليل بالفجر الذي كنت تحمينه على الدوام في حنجرتك ذات الحضور الابهى. وكنت تكذبين علينا كذاب المحبين العذب اذ ما كنا قادرين على ان نجمع بين حضورك الماليء للساعات، حضورك المتفجر بالحب وبين الفراق والغياب.

فهلا كذبت علينا مرة اخرى يا رسولة الصدق.

مجلة الاذاعة والتلفزيون
1975

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
نائب رئيس التحرير
عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
الاخراج الفني: نصير سليم
التصحيح اللغوي: نوري صباح
طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

موت نجيب المانع

فوزي كريم

(١)

أتردد خلف السور .
أُطِلّ على الرجل المأسور
بجمالك أيتها البستان .
الرجل وحيد مثل الوتر ،
ومثل الوتر يخيط من الألحان
كفنا .
وكمن يتماثل لشفاء
يرخي أزرارا
ثم يحل إزارا حول تويج الجسد .
ما أوحش هذا السمك يحط على الأصداف
ميتا ، في ماء الزمن الراكد .
وهواء الآخرة يلامس غصن الصفصاف
كغبار الطلع .
ما أوحش جنحك أيتها الساعة فوق الجسد
العاري !
ما أوحش هذي البستان ،
والوعل الرابض بين الدّغْل لمن لا يبصر أو
يسمع!
أتردد خلف السور .
أطل على الرجل العريان :إكليل حول
الرأس ،
وضفدعة
تقتات على أشتات بين يديه .
وأنا أتردد خلف السور . أطل عليه،
كالقاريء فوق كتاب.
ما أوحش هذي السحب وهي تلامس
جبهته ،
ثابتة مثل مياه في رئة غريق !
ما أوحش هذا الضوء الراكد فوق الشعر
الأشيب !
أنحدر من السور
أنحدر وأترك فوق إطار اللوحة وجه
صديقي المأسور
بجمالك أيتها البستان ،
بالأثر الفاتن للفرشاة
تركته رماديا .
أثرا منسيا لوجود مات .

(٢)

سأسمع عوضا عنك " أغاني موت الأطفال
" لـ " مالر "
أسمع كل " أداجيو " من موتسارت .
وأنصب للأوبرا برجا عاجيا
أتطلع منه إلى الحافات .
وأطلّ على أشتات كياني الزائل،
رثّا يتعثر فوق رصيف السوق
كالباحث ، عبثا ، عن أمل مسروق .
سأتابع وتر العاصفة الكبرى فى " الهمر
كلافير " .
وأخبيء خشخاشا ، في ذكراك عراقيا
منتخَباً من برّية جوعك

عن موقع اللحظة الشعرية الاركتروني